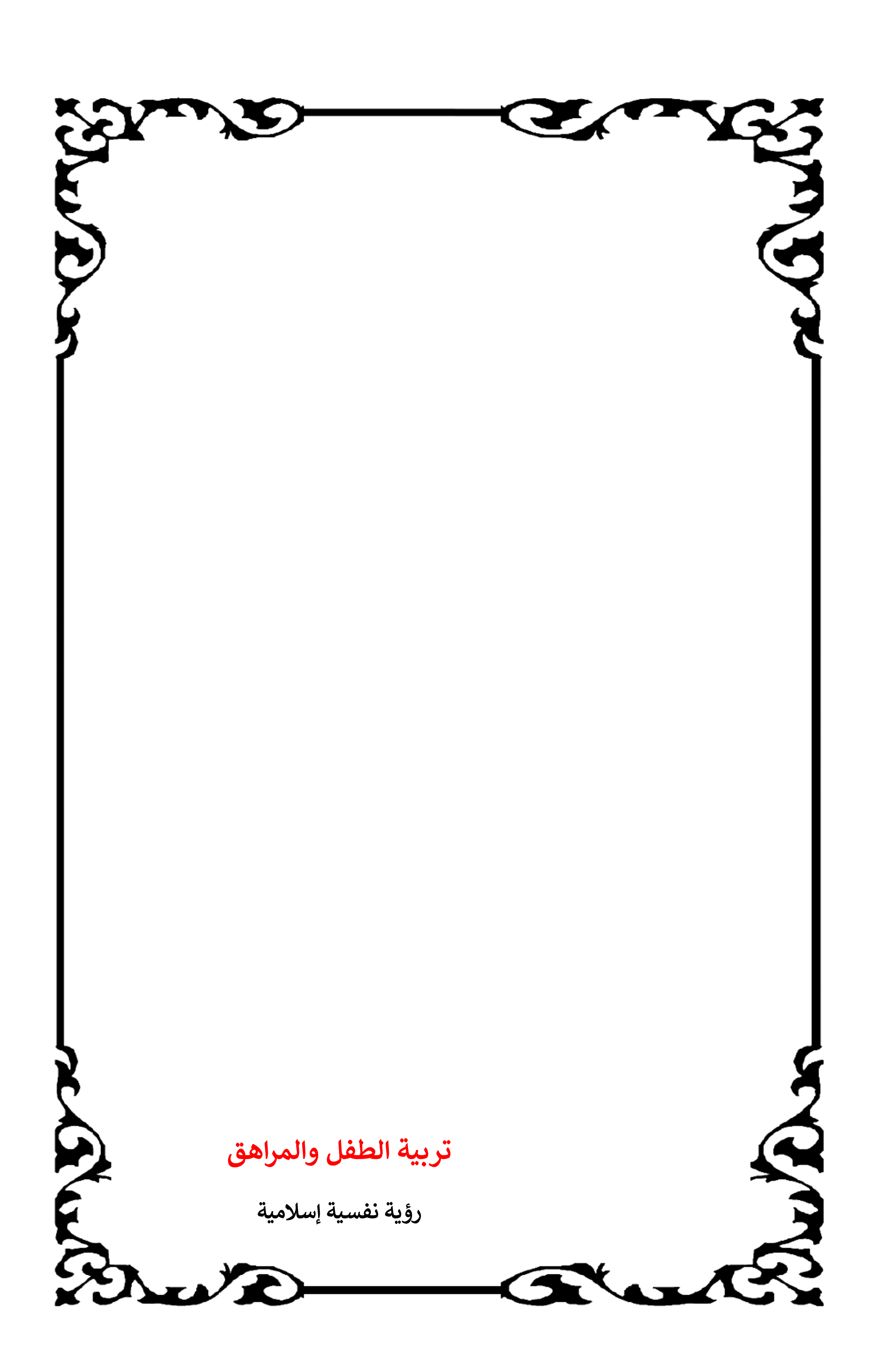


(رؤية نفسية إسلامية)



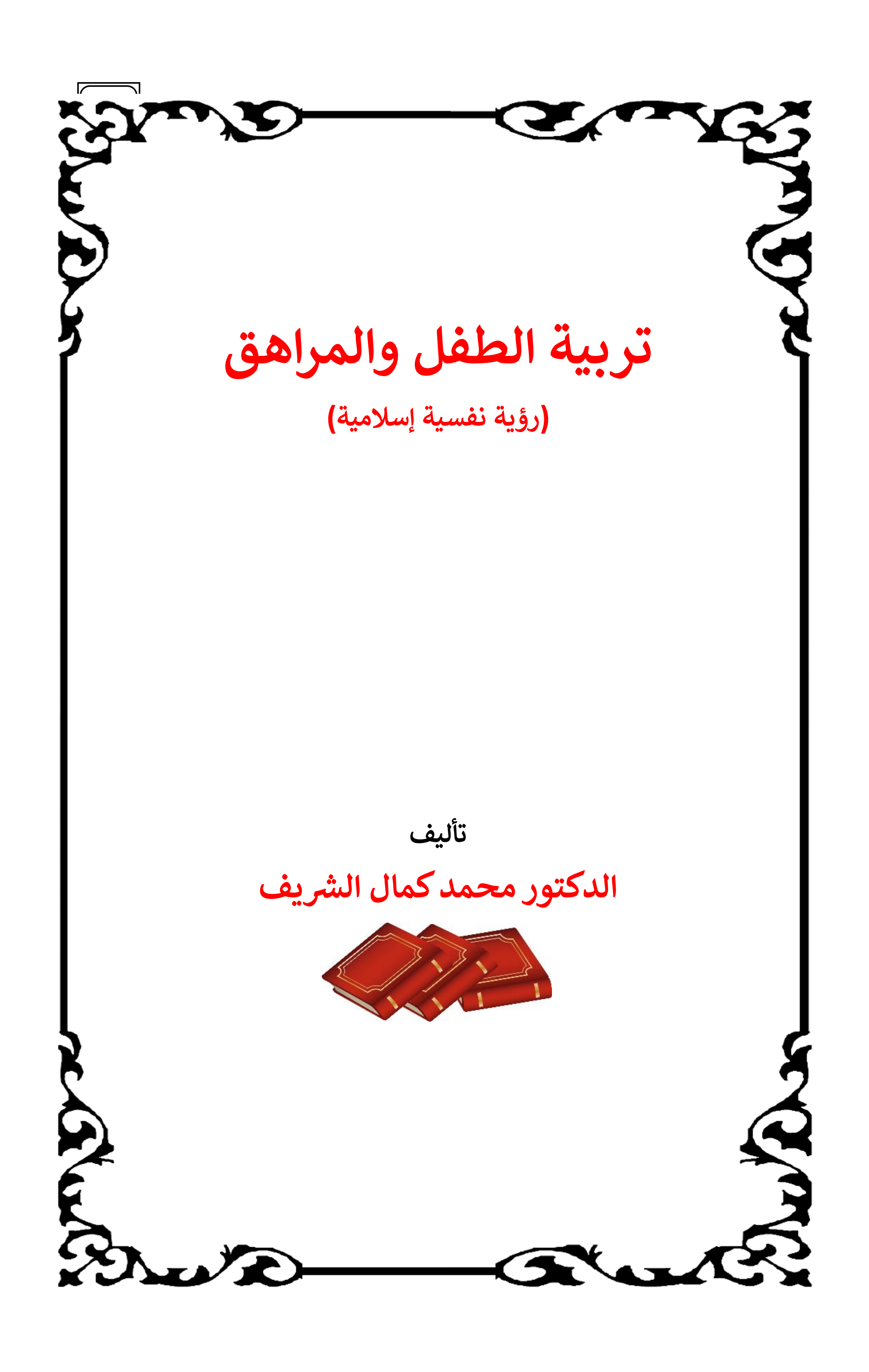
تأليف الدكتور محمد كمال الشريف





تربية الطفل والمراهق

رؤية نفسية إسلامية



تربية الطفل والمراهق

(رؤية نفسية إسلامية)

تأليف

الدكتور محمد كمال الشريف



ح محمد كمال الشريف، 1439هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشريف، محمد كمال

تربية الطفل والمراهق رؤية نفسية إسلامية. / محمد كمال الشريف

- الرياض، 1439هـ

..ص؛ ..سم

ردمك: 978-603-02-7057-6

1- التربية الإسلامية 2-تربية الأطفال أ.العنوان

ديوي 377,1 1439/6720

رقم الإيداع:1439/6720

ردمك: 978-603-02-7057-6

الناشر: محمد كمال الشريف

DRMKALSHARIEF@GMAIL.COM

الموزعون: التوبة للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، السعودية.

تلفون: 4763421 فاكس: 4774862

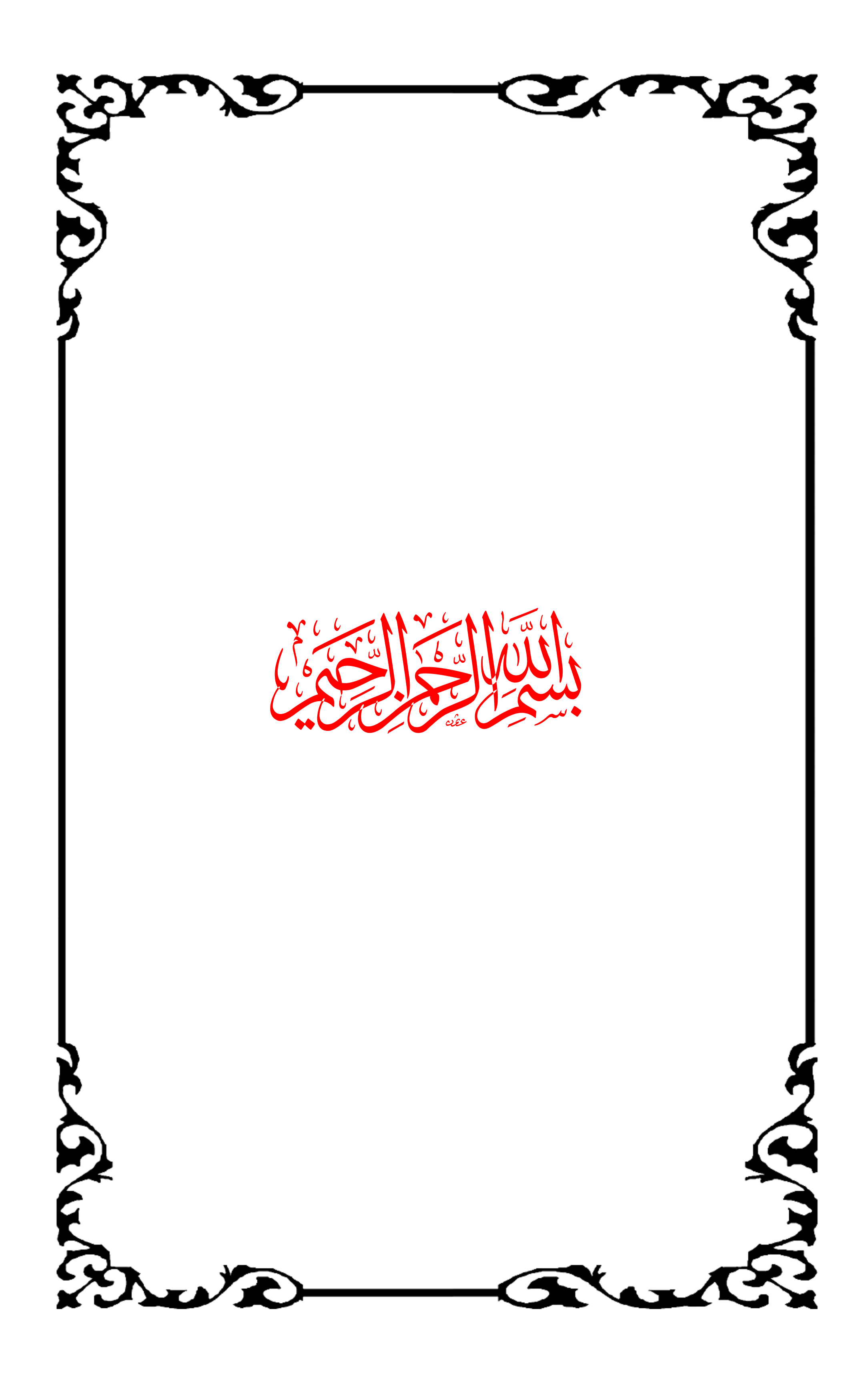
ص.ب.: 18290 الرمز البريدي: 11415

KH-DOUJI@HOTMAIL.COM

الطبعة الأولى

1440هـ - 2018م


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾
(سورة نوح ، الآية: 13 – 14)


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا...».

والرسول ﷺ يلفت أنظارنا في هذا الحديث إلى أهمية الفروق في الشخصية، والقدرات، والثقافة، في تحديد المستوى الذي يبلغه المسلم، من حيث تحقيقه للإسلام في حياته، حتى يكون من خيار المسلمين.

وإن صفات شخصية الإنسان من حيث النضج والتوازن، هي من أهم ما يجعل الإنسان من الخيار في الجاهلية، إذ قبل أن يتحرر الإنسان من الجاهلية، ويدخل في الإسلام، لن يكون لمعتقداته الضالة الفضل في جعله من الخيار، فالكفر كله ملة واحدة، إنما سلامة الشخصية الإنسانية من العيوب النفسية والخُلُقية عموماً، هي ما يميز بين خيار الناس وغيرهم في الجاهلية. فعنصر الإيمان ما زال غائباً، وبالتالي تكون الأهمية للعناصر الأخرى، وهذا يساعدنا على إدراك أهمية التربية السليمة، وأهمية الاستفادة من مكتشفات العلوم النفسية والاجتماعية الحديثة من أجل صياغة شخصيات أولادنا (صبياناً وبناتاً) بحيث تكون

شخصيات ناضجة متوازنة سليمة من العيوب؛ مما يجعل أولادنا أهلاً لأن يكونوا من الخيار بين المسلمين.

فبمجرد الإسلام يتحقق للإنسان الحد الأدنى من الخيرية، لكن حتى يكون المرء من خيار المسلمين، تلزمه عوامل أخرى، أكثرها عوامل نفسية وعوامل ثقافية.

وبلغة الحياة اليومية نقول: إن القوة الشخصية هي من مستلزمات بلوغ درجة الخيار.

إن للتربية السليمة دوراً كبيراً في تقوية شخصيات أولادنا، كما إن للأخطاء التربوية أثراً بالغاً في جعل شخصياتهم هشة هزيلة ومهزوزة؛ لذا علينا أن ندرك أن أي بحث يعلمنا كيف نحافظ على شخصيات أولادنا، بحيث تنشأ قوية متزنة، وأقرب ما تكون إلى الطمأنينة، هو بحث في صميم التربية الإسلامية؛ لأننا جميعاً، آباء وأمهات، نحب لأبنائنا وبناتنا أن يكبروا ليكونوا من خيار المسلمين.

وواضح أن خيار المسلمين هم أحسنهم تطبيقاً للإسلام وأحسنهم التزاماً به.

وهذا يعني أن العوامل النفسية وغير النفسية؛ التي تجعل الإنسان من الخيار حتى لو كان في الجاهلية.

هذه العوامل لها دور في تحديد قدرة هذا الإنسان على تحقيق الإسلام في نفسه، فمما عاب الله به على آدم - عليه السلام - عندما وقع في المعصية أنه كان ضعيف العزم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه:115].

والعزم صفة نفسية تتجلى فيها قدرة الإنسان على مقاومة هواه إن أمره - هذا الهوى - بما يضره.

وهذه الصفة من أهم صفات الشخصية الناضجة المتوازنة المطمئنة، ذلك أن المسلم الذي ملأ الإيمان قلبه لن يقدر على العمل الصالح، وعلى اجتناب ما

حرم الله في كل أحواله أو أغلبها، إن كان يعاني من الخلل في شخصيته، إذ قد يجعله هذا الخلل أكثر ضعفاً أمام شهواته، وأكثر عرضة للوقوع في المعاصي، وإن كان إيمانه سيجعل نفسه تلومه على هذه المعاصي.

ومثل هذا المؤمن لن يكون مؤهلاً لدرجة (الخيار) التي حدثنا عنها نبينا ﷺ، بالقدر نفسه الذي يكون فيه المؤمن القوي مؤهلاً لها.

والفصول التي بين يديك - عزيزي القارئ - هي من قبيل توظيف المفاهيم النفسية المعاصرة لنستعين بها على تربية أولادنا ومراهقينا وإعدادهم لدرجة الخيار، ولنستعين بها لترسيخ الإيمان في قلوبهم، بحيث يصمدون أمام الهجمات الثقافية، التي تتعرض لها أمتنا، ولنستعين بها أيضاً في تذليل الصعوبات أمامهم، حتى يلتزموا بدينهم، ويحققوه على أرض الواقع، عملاً صالحاً ظاهراً على كل مستوىً، إذ لما يئس أعداء هذه الأمة من انتزاعها من دائرة الإيمان، فإنهم لم ييأسوا حتى الآن من إخراجها من دائرة الالتزام والتطبيق.

أدعو الله العلي القدير أن تكون هذه الفصول علماً ينتفع به، وأسأله أن يتقبلها مني، وهي جهد المقل والمقصر، إنه سميع الدعاء.

2018/02/01

الدكتور محمد كمال محمود الشريف

نجران – المملكة العربية السعودية

******



الفصل الأول
قبل كل شيء النية والدعاء

من أجل ذرية صالحة، لابد للزوج من زوجة صالحة، ولابد للزوجة من زوج صالح؛ هو يظفر بذات الدين، وهي تتزوج ممن ترضى دينه وخلقه.

لكن، بعد هذه المرحلة، تأتي أهمية وضوح الغاية من أن يكون عندنا أولاد، أي: النية وراء إنجاب الأولاد.

هل ننجب الأولاد، ونتعب في تربيتهم السنين الطويلة حتى يكونوا لنا عوناً عندما نبلغ الشيخوخة؟ ربما كنا محظوظين، فكان أولادنا بارّين بنا، وعوناً لنا عندما نحتاج إليهم.

لكن قد لا يكونون كذلك، فيذهب جهد السنين في العناية بهم بلا مقابل.

وقد نربي الولد منهم السنين الطويلة، ثم يموت، أو يبتلى بعاهة، أو إعاقة دائمة. وقد، وقد... كل ذلك يجعل الإنجاب والتربية كوسيلة تأمين ضد الشيخوخة مشروعاً أقرب إلى الخسارة منه إلى الربح.

وقد ننجب الأولاد لأنهم مثل الأموال زينة هذه الحياة الدنيا: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46].

والنفس البشرية تحب امتلاك الزينة، لكن العاقل الذي يدرك مدى المسؤولية في ذلك، ومدى العبء الذي يحمله الأبوان في تربية أولادهما قد لا تعجبه هذه الزينة باهظة التكاليف.

وقد ننجب، لنَجْبُر كسر زواج على حافة الطلاق، ولكن زواجاً محطماً لا يستحق العناء الذي يتطلبه الأولاد، والأولاد قد يزيدون الأمور سوءاً، وقد يعجل ذلك بالطلاق ولا يؤجله.

يبقى أن ننظر إلى أولادنا على أنهم مشروع رابح لكسب الأجر والثواب، وارتفاع الدرجات عند الله، ولحفظ جهودنا من الضياع؛ لأن الجهد الذي نودعه أولادنا قاصدين بذلك تنشئتهم على الإيمان بالله، وتوحيده، وطاعته، جهد باقٍ لا يزول عندما تزول الجبال، ولا يختفي عندما تكور الشمس، أو تكشط السماء، أو تُسَجّر البحار.

إنه جهد أوْدع في إنسان، والإنسان ضمن الله له الخلود بعد أن يبعثه يوم القيامة إلى حياة لا موت بعدها، بينما تزول كل المعالم المادية العظيمة من حولنا.

إن تربية الأولاد بهذه النية مشروع لا احتمال للخسارة فيه، فقد قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك». [رواه مسلم].

وعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: قلت يا رسول الله! هل لي أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم، ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بَنِيِّ؟ فقال: «نعم لك أجر ما أنفقت عليهم» [متفق عليه].

هذا عن المال، فما بالنا بالجهد الدؤوب، وسهر الليالي بعد الحمل وهناً على وهن، أيعقل أن يكون أجر ذلك كله دون أجر المال الذي ينفقه الأب، والله يقول في كتابه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: 195].

وعندما يكبر أولادنا صالحين مؤمنين، سيكون لنا - إن شاء الله - من الأجر مثل ما يكون لهم كلما صلوا صلاة، أو صاموا صياماً، أو عملوا عملاً صالحاً، ما عاشوا، فالرسول ﷺ يقول: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» [رواه مسلم].

ويقول أيضاً: «من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» [رواه مسلم].

فالأعمال بالنيات كما قال ﷺ، وإننا عندما تكون نيتنا من إنجاب الأولاد وتربيتهم لله، ونضع اللقمة في فم الواحد منهم، ونحن نبتغي عليها الأجر والثواب من الله، لا من الولد نفسه، وعندما تلقمه أمه ثديها وهي ترجو رضا الله ومثوبته، ولا تنتظر المكافأة من الصغير حين يكبر، عند ذلك تمتلئ نفوسنا اطمئناناً إلى أن كل ما نقدمه محفوظ لنا، لنا نحن بالذات معشر الآباء والأمهات.

وهذه الطمأنينة على أعمالنا أنها لن تضيع - سواء أحسن إلينا أولادنا، أو لم يحسنوا عندما يكبرون - تجعلنا نبذل ونربي بحماسة ورضاً، وعندها نشعر أن أولادنا نعمة من الله؛ لأنهم وسيلتنا إلى زيادة حسناتنا، فكم منا من له الجَلَد والمثابرة على الصلوات الكثيرة في جوف الليل؟! وكم منا من إذا صلى كانت صلاته كلها خشوع؟! وكم منا من له الصبر على صوم أكثر الأيام؟!

إن أولادنا وسيلتنا لكسب الأجر العظيم الذي نعجز عن كسبه عن طريق النوافل الكثيرة: صلاةٍ، وصومٍ، وصدقةٍ، وحجٍ، وذكرٍ، فبإخلاص النية لله، يصبح سهر الأم على رعاية رضيعها عبادة، ويصبح عمل الأب في مصنعه أو متجره عبادة.

والولد الذي يحفظه الله لنا، فيعيش، يكون مستودعاً يحفظ الله لنا فيه أعمالنا؛ ليكافئنا عليها يوم القيامة، أما الذي يميته الله طفلاً، فنصبر، فإنه يقف على باب الجنة لا يدخلها حتى يدخل أبويه الصابرين.

أوليست تربية أولادنا على الإسلام تجارةً لن تبور إن شاء الله؟ والكَيِّسُ فينا من يغتنم فرصها ليحقق أكبر الأرباح.

❖ زكريا - عليه السلام - دعا الله طالباً الذرية الطيبة:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: 38]. ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:89 - 90].

❖ فآتاه الله يحي عليه السلام.

ونحن في حياتنا اليومية إذا أردنا شراء قطعة أثاث، أو سيارة، أو غير ذلك، ذهبنا إلى السوق، وحصلنا على ما تمكننا نقودنا القليلة من شرائه، لكن الثري فينا لا يفعل ذلك، بل يرسل بطلب إلى معمل السيارات ليصنعوا له سيارة ذات مواصفات معينة يرغب فيها، ثم يرسل المعمل بها إليه خصيصاً، طالما أنه كان قادراً على دفع الثمن الباهظ.

لكننا لسنا مطالبين بأي تكاليف إذا ما أردنا أن نطلب من الله ولداً بمواصفات معينة نحبها، إنما علينا أن نرفع أيدينا بالدعاء إليه، وأن نكثر من الدعاء قبل الحمل، سائلين الله أن يرزقنا ولداً صالحاً، ذكياً، سوياً، جميلاً.

❖ وكلمة ولد في اللغة العربية، تعني الابن الذكر وتعني البنت الأنثى.

ندعو الله ونلح عليه في الدعاء قبل الحمل، لأنه في لحظة الإلقاح، والتقاء نطفة الرجل بنطفة المرأة، يتحدد الكثير من صفات المولود القادم، فيكون دعاؤنا قبل الحمل أخذاً بالأسباب، ومسايرةً لسنن الله في الخلق.

ثم عند اللقاء لا ينسى أحدنا أن يذكر الله فيقول: «بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا».

فإن قدّر الله ولداً ثمرةً لهذا اللقاء الطيب، لم يضره الشيطان، ولم يسلط عليه كما أخبرنا رسولنا ﷺ في حديث ابن عباس الذي رواه البخاري في صحيحه.

وبعد حدوث الحمل ندعو، وندعو، لأن الأوان لم يفت، فالله قادر على أن يجعل المولود الذي ننتظره كما يشاء.

ثم بعد ولادته ندعو الله له كي يبارك فيه، فهذه سنة الرسول ﷺ، كما ندعو له أن يحفظه، وأن يجعله من الصالحين.

فالحفظ من كل مكروه، والصلاح، هما أهم ما نرجوه لأولادنا، ولنا أن ندعو لهم بالإضافة إلى ذلك بما نحب لهم من خير.

ليس الدعاء وسيلة العاجز، إنما هو سبب من الأسباب التي يحب الله أن نأخذ بها، فنؤجر على الدعاء نفسه؛ إذ هو عبادة بحد ذاته، ثم يكون لنا ما نحب من ذرياتنا إن شاء الله.

ليكن دعاؤنا المتكرر الذي لا نمل من التوجه به إلى رب العالمين المرة تلو المرة: ﴿... رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:74].

******



الفصل الثاني
نربي أولادنا على الإسلام أم على التقاليد؟

❖ تمهيد:

عندما يخطئ أولادنا فيفعلون أمراً يجب ألا يفعلوه، كأن يكذبوا، أو يسرقوا، أو يضرب أحدهم الآخر، أو يتجاهل أحدهم الضيوف فلا يسلم عليهم، أو يعلو صراخه وصخبه في حضورهم، أو..... الخ، عند ذلك تنطلق ألسنتنا محذرة قائلة: (عيب).

بعض الآباء والأمهات قد يكتفي بالتوبيخ، وهو يقول لولده: (هذا الذي فعلته عيب)، (عيب أن تكذب)، (الكذب عيب)، (عيب أن يضرب الولد أخاه)، (عيب أن تصخب ويعلو صوتك أثناء وجود الضيوف)، (عيب أن يرى الناس ثيابك ملوثة).

وقد يكون الذنب الذي ارتكبه الولد كبيراً في نظر أمه أو أبيه، فيستحق الضرب مع التوبيخ.

ومع العودة إلى الإسلام التي تشهدها أكثر بلدان العالم الإسلامي، صارت هنالك أسر كثيرة تحاول أن تعيش على هدى الإسلام في كل شؤون حياتها، وفي هذه الأسر قد ينبه الأب والأم أولادهما إلى أن الكذب (حرام) والسرقة (حرام) وإفطار الولد الكبير في رمضان (حرام)، ولكن في باقي التصرفات غير المهذبة، أو غير المرغوب فيها، وليست في الشرع محرمةً، تلجأ هذه الأسر إلى ما تلجأ إليه باقي الأسر في مجتمعاتنا، فتصف التصرف الخاطئ بأنه (عيب)، وتوبخ الولد، وقد تضربه بالإضافة إلى ذلك.

إذاً هنالك أسر كثيرة في مجتمعاتنا يقتصر وصفها لكل تصرف خاطئ يقع فيه الولد على كلمة (عيب)، وهنالك أسر ملتزمة تقول عن الحرام (حرام) وعما سواه (عيب)، والنتائج لمثل هذه التربية تبدو في الغالب جيدة، فالأولاد يكبرون مهذبين لا يرتكبون ما هو عيب، فيكونون في ذلك محط إعجاب الناس ورضاهم.

لكن السؤال هنا هو: هل تثمر هذه التربية على العيب وحده، أو على مزيج من العيب والحرام ولداً صالحاً، عبداً لله بكل معاني العبودية، وخليفة له في الأرض كما أراده الله تعالى؟

إن أغلى شيء عند أبٍ مسلمٍ أو أم مسلمة هو أن يريا أولادهما صالحين، وهما يُجهدان نفسيهما في متابعة أولادهما، وتصحيح أخطائهم كي يكونوا صالحين، ويكونوا بذلك قرة عين حقاً. وأكثر الآباء والأمهات يتوقعون أن التربية على مزيج العيب والحرام سوف تحقق ما يصبون إليه من صلاح أولادهم. لكن هل هذا صحيح يا ترى؟

عندما نقول عن تصرف بأنه عيب فماذا نعني بذلك؟ لقد جاء في القاموس المحيط أن كلمة (العيب) تعني (الوصمة) فالعيب وصمة ولطخة، تلطخ صورة الإنسان في عيون الآخرين، فيرونه شاذاً لا يستحق التوقير والاحترام، ويبدو في نظرهم إنساناً لا حياء عنده، ولا يحسب لمشاعرهم حساباً. فكلمة عيب تعني إذاً أن تصرفاً ما تصرف لا يرضى عنه الناس، فيجلب مذمتهم لمن يرتكبه، ويفقده تقديرهم له، ويخفض مكانته عندهم.

إنه لا بد لكل مجتمع بشري، من أن تكون له قوانينه التي ينظم بها سلوك أفراده وعلاقاتهم فيما بينهم، وهذه القوانين تنقسم في كل مجتمع إلى قسمين:

الأول: يكون في المجتمعات المتقدمة مكتوباً، تسهر الحكومة على تنفيذه، وتعاقب على مخالفته بعقوبات مختلفة تبدأ بالغرامات المالية، وتتدرج شدة حتى تبلغ القتل في الجرائم الكبيرة. وهذا الجزء المكتوب يسمى (القانون)،

وهو لا يتدخل في كل صغيرة وكبيرة في حياة الناس، إنما يقتصر على الأشياء التي تعتبر خطيرة كالسرقة، وجرائم القتل، أو الخيانة، أو ما شابه ذلك.

أما باقي شؤون الحياة فتنظمها القوانين غير المكتوبة، وهي تشكل القسم الثاني وتسمى: (التقاليد). والتقاليد تنظم كل صغيرة وكبيرة في سلوك الأفراد والعلاقات بينهم.

فهي تحدد أن فعلاً من الأفعال، أو خلقاً من الأخلاق، يستحق المديح والثناء، كالكرم مثلاً، وأن فعلاً من الأفعال يستحق الذم، ويسمى عيباً، كإهانة الضيف، والتقصير في إكرامه مثلاً.

وتنظم التقاليد طريقة اللباس، والطعام، وأسلوب الكلام بين الرجال والنساء، وتنظم اختلاطهم، وكذلك الخطوبة، والزواج، والحياة الزوجية، والطلاق، وتنظم أدب الولد مع أبيه وأمه، وعلاقة الجار بجاره، وعلاقة الصغار عموماً بالكبار، كما تنظم العلاقات مع الأقرباء والأصدقاء.... إنها تنظم كل شيء سكت عنه القانون المكتوب، فتكون بذلك مكملة للقانون.

ويقوم الناس عادةً بتنشئة أولادهم على احترام التقاليد منذ الطفولة، ويرى الأولاد كيف يحترم آباؤهم وأمهاتهم العادات والتقاليد، فينغرس في نفوسهم الإحساس بوجوب التقيد بها، فترى القانون الحكومي يحتاج إلى سلطة الدولة وهيبة الشرطة لضمان تنفيذه، أما التقاليد فالناس جميعاً يسهرون على تنفيذها، ويقومون بالضغط على من يخالفها كي يعود إلى الطريق المستقيم الملتزم بها.

ويتحدث علماء الاجتماع عن مفهوم التحكم أو الضبط الاجتماعي social control حيث يلجأ المجتمع إلى وسائل عدة للضغط على الفرد، كي يبقى ملتزماً بالتقاليد السائدة، والقوانين المكتوبة.

والذي يهمنا التفصيل فيه هو ما يتعلق بالتقاليد غير المكتوبة؛ حيث تتنوع وسائل الضبط الاجتماعي، وتتراوح ما بين الإقناع، والسخرية، وكلام الناس، والاحتقار، والازدراء، والنبذ، والهجر، والقطيعة للذي يخالف.

والذي يجب ملاحظته، أن القوانين الوضعية، والتقاليد، تقوم بتنظيم الحياة الإنسانية، في المجتمعات التي لم تتلق شرعاً إلهياً ينظم حياتها، فتكون بديلاً عن الدين في تلك المجتمعات المفتقرة إلى الدين، وهذا ما كان عليه الحال عند عرب الجاهلية، قبل أن يدخلوا في دين الله أفواجاً، فقد كانت التقاليد هي الشرع الذي ينظم حياتهم.

كان عرب الجاهلية يؤمنون بالله رباً واحداً، خلق الناس، وخلق الأرض والسماء، لكنهم أشركوا معه آلهةً زعموها، لم ينسبوا إليها خلق شيء، إنما اتخذوها لتقربهم من الله زلفى، فيدعونها مع الله، ويلجئون إليها عندما يحتاجون إلى العون، لكنهم لم ينسبوا إليها شرعاً ينظم أعمالهم، وأخلاقهم، وعلاقاتهم، ويحدد لهم ما يجب فعله، وما يجب تركه، إنما الشريعة التي كانت تحكم أغلب شؤونهم كانت شريعة العادات والتقاليد.

وكان خضوعهم للتقاليد معلناً يؤمنون بوجوبه إيماناً، ولا تحدثهم نفوسهم بالتمرد عليه، فقد كان أحدهم مستعداً لبذل أغلى ما عنده، حتى تقول عنه العرب أنه كريم، فتتحدث الركبان عن جوده وكرمه، وكان أحدهم يبذل نفسه رخيصةً من أجل أن تتحدث العرب عن شجاعته وبطولاته، وتنظم فيه الأشعار، وكان أحدهم لا يتورع عن وأد ابنته حيةً مخافة أن تلحق به (العار) في يوم من الأيام.

ثم أكرم الله عرب الجاهلية بالإسلام، فجاءهم بشرع إلهي ينظم كل صغيرة وكبيرة في حياتهم، فلا تجد أحداً من الصحابة يتحدث عن العيب أو العار، بل الكل يتحدث عن الحلال، والحرام، والمكروه، والمباح، والمستحب، فقد حل دين الإسلام محل دين العادات والتقاليد الجاهلية العربية.

وقد يستغرب بعض الإخوة القراء أن أقول: دين العادات والتقاليد، والحقيقة أن العادات والتقاليد دين يشبه الأديان، من حيث هي شرع يطلب من الناس الالتزام به، ويثيب الملتزم، ويعاقب المخالف، ولكنه دين دنيوي لا يتحدث عن الله ولا عن الحياة بعد الموت، إنما عقوبته ومثوبته في الدنيا وحدها.

في الإسلام أمور نهى الله عنها سميت حراماً، وفي التقاليد منهيات سميت عيباً، وفي الإسلام أمور دعانا الله إليها، فهي أعمال صالحة، وفي التقاليد ما يقابلها من المفاخر والمآثر.

وفي الإسلام فرائض، وفي التقاليد واجبات لا يجوز التقصير فيها، وسكت الإسلام عن كثير من الأمور فبقيت مباحة، لا هي مفروضة، ولا هي محرمة، ولا مندوب إليها، وكذلك سكتت التقاليد عن أشياء كثيرة، فلا هي عيب، ولا هي مفخرة.

وفي الإسلام إن عظمت المعصية سميت (كبيرة) وفي التقاليد إن عظم العيب سمي (عاراً)، وفي الإسلام «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وفي التقاليد (إن أشرفكم بين الناس أشدكم محافظة على التقاليد وأبعدكم عن مخالفتها).

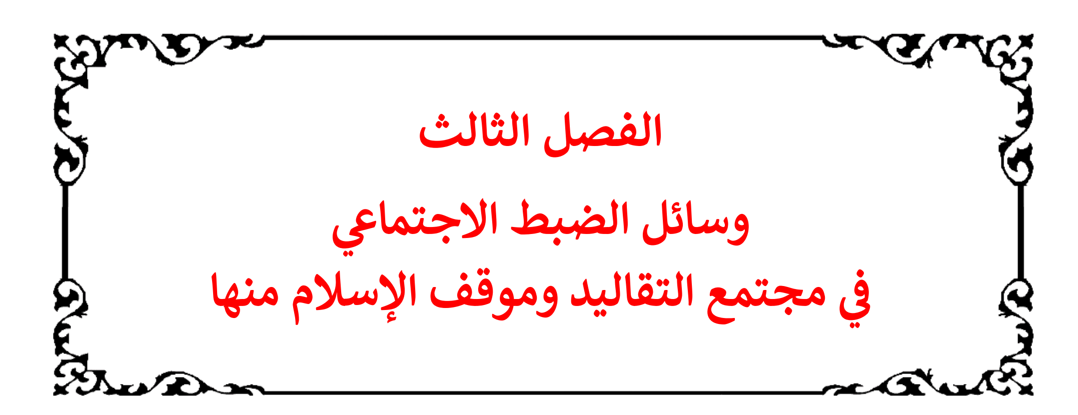
في الإسلام يسعى العبد لبلوغ مكانة وحظوة عند رب العالمين، «رُبّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره» كما قال ﷺ، وفي التقاليد يسعى المرء لبلوغ مكانة عند الناس (الشرف والفخر) ويتجنب سخطهم وغضبهم بأن يبتعد عن كل (عيب) يجلب مذمتهم.

وطاعة التقاليد نوع من العبادة للذين شرعوها، ولو أنه من الصعب تحديد من شرع التقاليد في مجتمع ما تحديداً بالاسم، إلا أنهم عادةً كبراء الناس ومترفوهم، وبخاصة السابقون الذين ماتوا، أي الآباء: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف:23].

أما كيف تكون طاعة التقاليد عبادة، فلأن التقاليد تحرّم على الناس أشياء، وتحل لهم أشياء أخرى، والطاعة نوع من العبادة، وقد بين النبي ﷺ أن اتباع أهل الكتاب لأحبارهم ورهبانهم فيما أحلوه لهم وحرموه عبادة للأحبار والرهبان.

وقد روى ابن كثير في تفسيره عن الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عُدَي ابن حاتم - رضي الله عنه - أنه قدم على رسول الله ﷺ لما كان على نصرانيته، والرسول ﷺ يقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: 31]. فقال عدي: إنهم لم يعبدوهم، فقال الرسول ﷺ: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم».

******



الفصل الثالث

وسائل الضبط الاجتماعي
في مجتمع التقاليد وموقف الإسلام منها

1- الإقناع:

ولنضرب على ذلك مثلاً: شاب من أسرة ثرية مترفة في مجتمع التقاليد، يريد الزواج من فتاة صالحة لكنها من أسرة فقيرة، وعندما يعبر عن رغبته تقوم قيامة عائلته، (ماذا سيقول الناس عنا؟) (كيف نناسب ونصاهر هؤلاء الذين لا أصل لهم؟) ويغضب الأب الذي شعر بالتهديد لمكانته بين الناس فيما لو تم زواج ابنه من فتاة فقيرة، فيبعث بالأم إلى ابنها تحاول إقناعه لتثنيه عن عزمه، وقد تقترح عليه عروساً غيرها من الأسرة الفلانية التي تمتلك كذا وكذا من العقارات، أو التجارات.

ولقد أقر الإسلام أسلوب الإقناع، وتبناه، وسماه (عظة)، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: 34]. لكن شتان ما بين قيم الجاهلية التي يريد مجتمع التقاليد أن يقنع أبناءه بها وبين عظة الإسلام؛ التي تذكر بالله، وتدعو إلى التقوى والاستقامة.

2- السخرية والتعييب:

وهذه الوسيلة أكثر ما تستخدم مع الضعفاء كالأطفال، وبعض الكبار الذين يتجرأ عليهم الأقوياء، فيسخرون منهم في وجوههم، والأطفال أكثر

من يعاني من ويلات هذه الوسيلة؛ إذ تلجأ أسر كثير إلى السخرية، وتلقيب الطفل بالألقاب النابية، لترغمه على ترك سلوك لا ترضاه، وعلى التصرف وفق ما طلبت منه من أصول، فالكل يعرف ما يلقب الولد الذي يبول في فراشه ليلاً، مع أن ذلك أمر لا إرادي لا يد للولد فيه، ثم ما أكثر الآباء والأمهات الذين يرددون (يا عيبه.. يا عيبه!) يعيبون على ولدهم حتى لا يعود إلى فعل فعله، الذي لم يعجبهم.

هذه الوسيلة تحطم في الإنسان شعوره بكرامته، وقيمته، وثقته بنفسه، وبخاصة إن كان طفلاً.

إن السخرية والتعييب ليست تربية على الإطلاق؛ لأن التربية رعاية وحماية، أما السخرية والتعييب والتلقيب، فهي إيذاء وعدوان، وإذا ما زادت السخرية من الولد عن الحد، فإن ذلك قد يدفعه إلى التمرد على القيم كلها، وعلى عالم الكبار كله، فتكون بداية انحرافه وجنوحه.

والإسلام حرم السخرية، والتعييب، والتنابز بالألقاب، ولم يرخص في ذلك بحق الأطفال، فهم الأحق بالرعاية والحماية.. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات:11].

3- كلام الناس:

والفرد في مجتمع التقاليد يعيش في رعب دائم من كلام الناس، ويكلف نفسه العنت والمصاعب كي يتجنب أن يصبح قصة تلوكها الألسنة، وبالطبع كلام الناس هنا لا يعنى به المدح والثناء، إنما هو الذم، والتشهير، والفضيحة.

وقد كان حديث الإفك مثالاً عليه، حيث روج له المنافقون الذين ما زالت التقاليد تحكم سلوكهم ودوافعهم، وتورط فيه بعض المسلمين أيضاً، فكان فرصة تعلم المسلمون فيها بالدرس العملي، كيف يتصرفون في مثل تلك الحالات.

وخلاصة حديث الإفك أن النبي ﷺ خرج في غزوة، وكان نصيب عائشة أن تخرج معه ترافقه، وكان قد فرض الحجاب الكامل على نساء النبي ﷺ،

بحيث لا يراهن الرجال، ولا يرين الرجال، إلا للضرورة، وما سوى ذلك تكون مخاطبتهن من وراء حجاب - أي: ستارة - إلا على محارمهن، كإخوتهن، وآبائهن، وأخوالهن، وغيرهم.

وعندما أخذ الجيش يتجهز للعودة فقدت - عائشة رضي الله عنها - عقدها، وكانت حريصة عليه، وتوقعت أنه وقع منها عندما ذهبت لحاجتها، فغادرت هودجها الذي كانت تقيم فيه محجوبة عن الرجال، وذهبت تبحث عن عقدها، وفي تلك الأثناء، جاء الرجال المكلفون بوضع هودجها على الجمل، فوضعوه وهم يحسبون أنها بداخله، ولم يرتابوا؛ لأنها كانت نحيفة، خفيفة الوزن.. ورحل الجيش، وبقيت عائشة - رضي الله عنها - تبحث عن عقدها، وهي لا تعلم أن الجيش قد رحل.

ولما وجدت عقدها، رجعت إلى حيث كان الجيش، فلم تجد أحداً، فقعدت في المكان الذي كان فيه هودجها، تنتظر متوقعة أنهم سوف يفقدونها، ويرجعون إليها، وغلبتها عينها فنامت، وكان صفوان بن المعطل - أحد صحابة رسول الله - من وراء الجيش فمر بها فعرفها، وكان قد رآها قبل أن يفرض الحجاب على أمهات المؤمنين، فاسترجع قائلاً: إنا لله وإنا إليه راجعون، فاستيقظت عائشة - رضي الله عنها - عندما سمعت صوته، فخمرت وجهها بجلبابها، وأركبها على راحلته، وانطلق ماشياً يقود الراحلة.

تقول عائشة - رضي الله عنها -: والله ما تكلمنا بكلمة، حتى وصلا إلى حيث كان الجيش قد نزل يرتاح. فأشاع المنافقون في المدينة ما صوره لهم خيالهم المريض، مما قد يقع بين رجل وامرأة في خلوة الصحراء، وكانوا يظنون صفوان وعائشة مثلهم، لا يمتنعان عن الحرام إلا أمام الناس، فإذا أمنا عيون الناس أطلقا لنفسيهما العنان، ولم يدركوا أن الإسلام دين، والدين شيء آخر.

وشاعت الفضيحة أكثر من شهر، والنبي ﷺ صابر على أذى الذين يخوضون في الإفك، ويتهمون زوجته وصاحبه، دون أن يكون هنالك ما يدعو للاتهام، وعائشة صابرة ما بين مرض وبكاء، حتى أنزل الله في براءتها قرآناً، يتلى إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ

ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور: 11-13].

وكلام الناس محرم في الإسلام، لا يصلح وسيلة لضبط أخلاق الناس أبداً، ولا تبرره أية نية حسنة؛ لأن كلام الناس لا يعدو أن يكون: قيلاً وقالاً، وغيبةً، وقد يكون قذفاً، كما كان في حديث الإفك.

وقد حرم الله القذف، وجعل له حداً يعاقب به من يقع فيه، بأن يجلد ثمانين جلدة، وألا تقبل له شهادة أبداً، واعتبر فاسقاً إلا أن يتوب ويصلح، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور: 4- 5].

أما القيل والقال، فقد نهى النبي ﷺ عنه حين قال: «إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال». [متفق عليه].

قال النووي - رحمه الله- شارحاً: و(قيل وقال) معناه: الحديث بكل ما يسمعه فيقول: قيل كذا، وقال فلان كذا مما لا يعلم صحته، ولا يظنها، وكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع.

أما الغيبة فقد حرمها الله حرمة شديدة، وجعل جزاء الذي يقع فيها أن يؤخذ من حسناته وتعطى للذي وقعت عليه الغيبة، وشبهها القرآن بأكل لحم الذي اغتيب ميتاً، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: 12].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قيل: يا رسول الله! ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخيك بما يكره»، قال: أرأيت إن كان فيه ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»، [رواه الترمذي في أبواب البر والصلة، وقال: حسن صحيح].

وقد «نهى رسول الله ﷺ عن أن يعير المسلم أخاه، ويعيب عليه، وعن أن يتبع عورته، ويفضح عيوبه بين الناس».

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر، فنادى بصوتٍ رفيعٍ قال: «يا معشر من أسلمَ بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه! لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحلهِ».

قال راوي الحديث: «ونظر ابن عمر يوماً إلى البيتِ، أو إلى الكعبة، فقال: ما أعظمكِ! وأعظمَ حرمتكِ! والمؤمنُ أعظمُ حرمةً عند الله منكِ». [رواه الترمذي في أبواب البر والصلة، وقال هذا حديث حسن غريب].

وعن معاوية - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنكَ إنِ اتبعتَ عوراتِ المسلمينَ أفسدتَهم، أو كدتَ أن تفسدهم»، [رواه النووي في رياض الصالحين، وقال: حديث صحيح].

ودعا الرسول ﷺ المسلمين إلى أن يستر بعضهم على بعض فقال:

«من نَفَّسَ عن مسلمٍ كربةً من كرب الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يَسَّرَ على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كانَ العبد في عون أخيه». [رواه الترمذي في أبواب البر والصلة، وقال: هذا حديث حسن].

وقد بيّن النووي - رحمه الله - ما يباح من الغيبة فقال:

(اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها وهو ستة أسباب:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي، وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلان بكذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، وردّ العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي ، أو زوجي، أو فلان بكذا، فهل له بذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي، ودفع الظلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل، أو شخص، أو زوج كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز كما سنذكره في حديث هند إن شاء الله تعالى.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه: منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته. ويجب على المشاوَر ألا يخفي حاله، بل يذكر المساوىء التي فيه بنيّة النصيحة.

ومنها: إذا رأى متفقهاً يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، شريطة أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه. وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويلبس عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصحه، فليتفطن لذلك.

ومنها: أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها: إما بأن لا يكون صالحاً لها، بأن يكون فاسقاً أو مغفلاً، ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله، ويولى من يصلُح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة، أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته، كالمجاهر الذي يشرب الخمر، ومضادة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلماً، وتولي الأمور

الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب، كالأعمش، والأعرج، والأصم، والأحول، وغيرهم، جاز تعريفه بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء، وأكثرها مجمع عليه، ودلائلها من الأحاديث الصحيحة المشهورة)، [رياض الصالحين باب: ما يباح من الغيبة].

ولا نجد فيما ذكره النووي - رحمه الله - أي مجالٍ لما يُسمَّى كلام الناس في مجتمع التقاليد، فالتعييب على الناس غيبة محرمة أشد الحرمة في الإسلام، ولا تصلح وسيلة لضبط سلوك الناس أبداً، وقد استبدل الإسلام بكلام الناس وسيلة ضبط خاصة به تسمى: إنكار المنكر، وهي جزء من وسيلة شاملة هي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104].

وقال أيضاً: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: 110].

وقال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، [رواه مسلم].

وقال أيضاً: «والذي نفسي بيده! لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكَنَّ الله أن يبعثَ عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»، [رواه الترمذي، وقال: حديث حسن].

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله، وشريبه، وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨١ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢﴾ [المائدة 78-82]. ثم قال: «كلا والله! لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعننكم كما لعنهم» [رواه أبو داوود والترمذي، وقال حديث حسن. هذا لفظ أبي داوود].

ولفظ الترمذي: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم، وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داوود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»، فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً، فقال: «لا والذي نفسي بيده! حتى تأطروهم على الحق أطراً»، وقال النووي مفسّراً: «قوله: تأطروهم، أي: تعطفوهم، ولتقصرنه، أي لتحبسنّه». [رياض الصالحين رقم 196].

والكفر والاستهزاء بآيات الله هما أشد المنكرات، وأقبحها، وقد قال الله تعالى مخاطباً النبي ﷺ في مكة: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام:68].

وقال أيضاً مخاطباً المؤمنين جميعهم في المدينة المنورة، حيث كان يعيش معهم اليهود والمنافقون: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا

﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء:140].

وقد قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: غير الكفر ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾، فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر؛ لأن من لم يتجنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، فكّل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم، يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية، وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم، فينبغي أن يقوم عنهم، حتى لا يكون من أهل هذه الآية).

أما ابن كثير - رحمه الله - فقال في تفسير الآية نفسها: (أي: إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله، ويستهزأ، وينتقص بها، وأقررتموهم على ذلك، فلقد شاركتموهم في الذي هم فيه، فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ في المأثم، كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدةٍ يُدار عليها الخمر»، [رواه ابن حجر في فتح الباري وقال: إسناده جيد].

فإنكار المنكر في المجتمع الإسلامي شيء مختلف تماماً عن كلام الناس، وعن الغيبة، والتعييب، والتعيير في مجتمعات التقاليد، والإسلام لا يرضى أن نقع في الغيبة، أو نفضح مسلماً استتر بمعصيته إن اطلعنا نحن عليها من أجل أن ننكر المنكر؛ لأن الغيبة وفضيحة المسلم منكر في حد ذاته، وقد يكون أكبر بكثير من المنكر الذي نريد أن ننكره.

وكلام الناس في مجتمعات التقاليد يعبر عما في نفوس الناس من مشاعر عداوة، وبغضاء، وحسد، وشماتة تجاه بعضهم بعضاً، فتراهم يجدون لذة ومتعة في تتبع عورات الآخرين، والحديث عن عيوبهم وأخطائهم، وتمضية الأوقات الممتعة في المجالس، والأمسيات، وأحاديث الجارات. إن كلام الناس ليس كإنكار المنكر يهدف بإخلاص إلى إعادة العاصي الذي وقع في المنكر إلى تقوى

الله وطاعته، إنما يستشعر من يخوض في أعراض الناس أنه خير منهم طالما أنهم لهم عيوب مع أنه له عيوب مثلهم، وإن كانت ما تزال مستورة عن الناس، لم تصل عيونهم إليها بعد.

إن إنكار المنكر في المجتمع المسلم تبدأ أول درجة فيه من استشعار عدم الرضا عما فعله مسلم آخر من معصية، أو عما وقع فيه منافق، أو كافر من إلحاد، وعناد.

والدرجة الثانية بعد الإنكار القلبي: أن يتوجه المرء بالنصيحة المخلصة للذي وقع في المنكر، وأن يذكره بالله، ويدعوه إلى تقواه، وهو يستشعر حب الخير له، والرحمة له، والخشية أن ينساق هذا الإنسان وراء الشيطان، فيكون من أهل النار.

إن المودة والرحمة هما اللتان تحركان المؤمن كي ينكر على مؤمن آخر معصية وقع فيها، ولكي ينهاه عنها، ويأمره بالمعروف من طاعة الله؛ لذا كان إنكار المنكر، والنهي عنه، والأمر بالمعروف في المجتمع نصيحة في الوجه، وليس غيبة وراء الظهر، وكان موعظة حسنة مع الستر، ولم يكن فضيحة، وإخباراً للناس عما اكتشف من أخطاء أخيه المسلم، وكان موقفاً واضحاً من المنكر، فلا يجلس المؤمن في مجالس المنكر والمعصية، بخلاف كلام الناس الذي يكون في الوجه حسناً، ومن وراء الظهر تعييباً وانتقاصاً، أي: يكون نفاقاً اجتماعياً، ويكون المرء فيه ذا وجهين، أو أكثر.

إن الفرق كبير جداً ما بين كلام الناس وإنكار المنكر؛ لأن كلاً منهما يصدر عن روح هي نقيض الأخرى، ويعبر عن أخلاق وقيم هي على النقيض مما يعبر عنه الآخر.

وإنكار المنكر لا يعني كراهية المسلم الذي وقع فيه، والحقد عليه، ومقاطعته مقاطعة تامة، بحيث يصير المجتمع مجتمعين: الأول: جماعة الطائعين، والثاني: جماعة العصاة، فيشعر العاصي أنه لا ينتمي إلى فئة الطائعين،

فلا يبق لرأيهم فيه وصداقتهم له أية قيمة في نظره؛ لأنهم يعاملونه على أنه ليس منهم، ولا يلمس منهم المودة والرحمة التي يجب أن يحملها المسلم للمسلم، الطائع منهم والعاصي على حد سواء.

إن التطرف في إنكار المنكر، وبلوغ الأمر حد الكراهية والقطيعة يفقد المجتمع المسلم الفائدة التربوية المرجوة من هذا الإنكار للمنكر، فيجب الحرص على التوازن، والاعتدال، وتنقية المشاعر تجاه من نأمرهم بالمعروف، أو ننهاهم عن المنكر.

4- الاحتقار والازدراء:

هذه هي الوسيلة الرابعة للضبط الاجتماعي في مجتمع التقاليد، فعندما يخالف شخص ما أعراف الناس، وتقاليدهم، يقلّ احترامهم له، وتذهب هيبته، وإن كانت مخالفته كبيرة عامله الناس باحتقار وازدراء واضحين، إلا إن كان جباراً يخشون أذاه.

وكما أن الأطفال هم أكثر ضحايا أسلوب التربية بالسخرية، والتعييب، والتلقيب، فإنهم للأسف يتلقّون الإهانات، والشتائم، والتحقير إذا ما أذنبوا.

وهذه الوسيلة للضبط الاجتماعي مرفوضة في الإسلام، سواء على المستوى الاجتماعي، أو المستوى الأسري، سواء في حق الكبار، أو في حق الصغار، فالإسلام حرم الكبر، والتعالي، وحرم تقديس الأشخاص، وقرر المساواة بين البشر، وقرر حداً أدنى من الكرامة لكل الناس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:70].

ولم يأذن الإسلام بالإساءة إلى الكرامة ولا بالتحقير كعقوبة، إذ قال النبي ﷺ في حديث متفق عليه: «إذا زنت الأَمَةُ فتبين زناها فليجلدها الحَدَّ ولا يُثَرِّب عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحدّ، ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر».

قال النووي مفسراً: (التثريب): التوبيخ. [رياض الصالحين، الحديث 242].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - فيما رواه البخاري أنه قال: أُتِيَ النبيُّ ﷺ برجلٍ قد شرب خمراً فقال: «اضربوه»، قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه. فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، قال النبيُّ ﷺ: «لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان» [رياض الصالحين، الحديث 243].

فلا الزنى، ولا شرب الخمر يبرران الاعتداء على كرامة مسلم بتحقيره، وشتمه، والتعالي عليه.

فعن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: قلتُ يا رسول الله! ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابْكِ على خطيئتك» [رواه الترمذي، وقال: حديث حسن].

فمن منا بلا خطيئة؟

وقوله ﷺ: «بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم» معروف لدى الكثيرين منا، فالمجتمع المسلم هو باختصار مجتمع الكرامة الإنسانية.

5- الهجر:

هو وسيلة للضبط الاجتماعي تلجأ إليه بعض المجتمعات كعقوبة توقعها على فرد ارتكب مخالفة كبيرة لأعرافها، وتقاليدها، حيث يسمح المجتمع لهذا الفرد أن يبقى في المجتمع يعيش ضمنه، ويعمل فيه، ولكن لا يكلمه أحد أبداً.

وقد أخذ الإسلام بهذه الوسيلة كعقوبة في حقّ الثلاثة من صحابة رسول الله ﷺ الذين تخلفوا عن غزوة تبوك دون عذر، والقصة باختصار هي أنه تخلّف كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي - رضي الله عنهم - بالإضافة إلى بضعة وثمانين رجلاً من المنافقين والضعفاء عن غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ، ولما عاد النبي ﷺ من الغزوة ذهب إليه كل من تخلف يقدم الأعذار الصادقة والكاذبة، وهو يقبل منهم أعذارهم، إلا أن كعباً،

ومرارة، وهلالاً ما كانت لهم أعذار، وما كانوا ليكذبوا على رسول الله ﷺ؛ الذي ما كان يخفى عليه أن أعذار من اعتذر إليه كان أغلبها كذباً؛ لذا قال ﷺ عندما كلمه كعب بن مالك يُبيِّن له أنه تخلف دون عذر: «أما هذا فقد صدق، فَقُمْ حتى يقضي الله فيك».

ونتم القصة بمقتطفات من حديث كعب بن مالك نفسه الذي رواه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، إذ قال:

(... ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، أما صاحباي فاستكانا، وقعدوا في بيوتهم يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم، وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردِّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحبُّ الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله! ما ردّ عليّ السلام، فقلت يا أبا قتادة! أنشدك بالله هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتولّيت حتى تسوَّرت الجدار).

ويصمد كعب أمام إغراء ملك الغساسنة الذي بعث إليه برسالة يواسيه فيها، ويدعوه إلى الانضمام إليه. وتمرّ الأيام والليالي على تلك الحال.. يقول كعب: (...حتى كَمُلَتْ لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺعن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلةً، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك!

أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أنه قد جاء فَرَجٌ. وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشرون، وركض إليّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلمَ، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله لا أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنونني بالتوبة، يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك...).

إن الهجر بهذه الصورة عقوبة مؤلمة، بالغة الأثر في النفس، وقد كانت في حقّ الصحابة الثلاثة عقوبة أمر بها الحاكم، وكان يومها رسول الله ﷺ نفسه، ولم يدع الإسلام إلى اتباع الهجر مع العصاة بهذه الصورة كوسيلة شعبية، فإنكار المنكر ليس هجراً كما رأينا، وإن كان الإسلام قد دعا إلى استخدام نوع من الهجر مع الزوجة التي تخرج عن طاعة زوجها، ولا تستجيب للعظة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: 34].

وقد فسر ابن عباس- رضي الله عنهما - الهجر في المضاجع ألا يجامعها، لكنه يضاجعها على فراشها، ويوليها ظهره (روى ذلك ابن كثير في تفسيره للآية)، فهذا الهجر ليس فيه الامتناع عن الكلام في الحياة اليومية، والإسلام اعترف أن المسلمين كبشر قد يختصم أحدهم مع الآخر، فيهجره، ولا يكلمه من التأثر مما ارتكبه في حقه من ظلم وإساءة، لكنه (أي: الإسلام) لم يدع إلى مثل هذا الهجر، إنما بواقعيته لم يسمح للمسلم أن يهجر مسلماً أكثر من ثلاثة أيام متواصلة، فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الأدب: أن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا، لا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام».

وروي عنه أيضاً ﷺ أنه قال: «لا يحل لرجلٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

لقد استعرضنا خمساً من وسائل الضبط الاجتماعي فكانت:

(1) الإقناع.

(2) السخرية والتعييب.

(3) كلام الناس.

(4) الاحتقار والازدراء.

(5) الهجر.

وقد فصلنا بعض الشيء عند الحديث عن (كلام الناس)، وكان قصدنا من ذلك كله أن نتبيّن أين يقع العيب منها، وإلى أي ينتمي منها، وأن نرى كيف أنه ليس لمفهوم العيب مكان في وسائل الضبط الاجتماعية الإسلامية، إنما هو مفهوم خاص بمجتمعات العادات، والتقاليد.

ولكن ماذا لو كانت التقاليد في مجتمع ما تقاليد حسنة، فما المانع من أن تنظم حياة الناس فيه؟

إن وجود تقاليد حسنة في مجتمع لا دين له ينظم شؤونه شيء مفيد، فهي بالتأكيد خير من لا شيء، لكن التقاليد إذا ما قورنت بالإسلام بدت غير صالحة لأن تنظم حياتنا، ولأن تقوم أخلاقنا على أساسها، وذلك لأسباب عدة:



الفصل الرابع

التقاليد والأخلاق: أسباب الإخفاق

1. السبب الأول:

عند الالتزام بالتقاليد يراقب المرءُ الناسَ، أي يحرص على إرضائهم، ويجتنب ما يكرهون من فعل وقول، لكن الناس ليسوا معنا أينما كنا؛ لذا تكون الأخلاق القائمة على التقاليد أخلاق نفاق اجتماعي؛ لأن المرء يمكنه أن يخالفها إن أمن أن يعلم الناس بذلك، أما الأخلاق القائمة على الدين الحق فإنها أخلاق للسر والعلانية، إذ على الذي يريد مخالفتها أن يبحث عن مكان لا يراه الله فيه حتى يعصيه، وينجو بذنبه دون عقوبة، وأنى له أن يجد مثل هذا المكان؟ قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ [النساء: 107-108].

وقال أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤﴾ [الحديد: 4].

فالحياء من الله أقدر على تقويم سلوك الناس من حيائهم من بعضهم بعضاً، قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه: «الله أحقُّ أن يُستَحيا منه مِنَ الناسِ».

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء» قلنا: يانبي الله! إنا لنستحي والحمد لله، قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، وتتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء». (رواه الترمذي وصححه الألباني).

2. السبب الثاني:

إن التقاليد تركز دائماً على الذم والمدح، وعلى المكانة في المجتمع، فتنسب الشرف للمطيع لها، وتلحق العار بالمتمرد عليها، وهي بذلك قائمة على أساس العلو في الأرض، والفخر، والاستكبار.

وهذا الخُلُق كان سائداً عند عرب الجاهلية، وهو في الأصل خُلُق إبليس الذي أبى واستكبر، فإبليس كان أول من استكبر، وافتخر بأصله أنه من نار، بينما آدم من طين: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص:76].

والفخر خُلُقُ التقاليد، إذ يفخر البعض بنسبهم، والبعض بمالهم، وآخرون بقوّتهم، وتُعمل الأعمال لتكون شيئاً يُفتخر به، وفي بعض البلاد يقال: «إما أن تفتح بابك فتفتخر، وإلا فلتغلقه فتستتر» وهم يقصدون أنك إن دعوت أحداً إلى بيتك، أو قدمت هدية، أو احتفلت بعرس، أو.... فافعل ذلك إن كنت قادراً على أن تفعله بشكل يجلب المديح، والثناء، والفخر، وإلا فلا تفعل على الإطلاق، وذلك ستر لك، لأن طعاماً متواضعاً تدعو إليه أصدقاءك عيب، ويجلب المذمة، ولأن هدية غير قيمة قد تجلب كلام الناس، وحفلاً بسيطاً يُقلل من مكانتك بين الناس دون مراعاة لحالك، فطالما أنك غير قادر على ما يجلب الفخر، فخيرٌ لك ألا تفعل شيئاً من ذلك.

لذا يشعر المحرومون في مجتمع التقاليد بالضّعة والنقص، ويتحرقون على ما يخرجهم من ضعتهم وفقرهم فيرفعهم بين الناس مكاناً عالياً، فينضمون إلى طبقة المترفين الذين يحق لهم الفخر، والتباهي، والتعالي.

والنزعة إلى التعالي، والسعي إلى بلوغ مكانة بين الناس أمر مفسدٌ لدين المرء، ومبطلٌ لأعماله، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان: 18].

وقال أيضاً: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: 83].

وقال النبي ﷺ في حديث حسن صحيح رواه الترمذي في كتاب الزهد: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنمٍ بأفسدَ لها من حرصِ المرء على المال والشرفِ لدينه».

فالحرص على المال والحرص على الشرف أي: المكانة بين الناس، يفسدا الدين كما لو كانا ذئبين جائعين أُطلقا في قطيع من الغنم.

وقد روى مسلم في صحيحه في كتاب: الجنة، عن عياض قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم خطيباً فقال: «إن الله أمرني أن أُعلمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا.... وإن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد... ».

وكان ﷺ إذا ما أخبر عن نفسه، وعن مكانته التي خصّه الله بها من بين الناس يقول: «ولا فخر» فقد روى الترمذي حديثاً حسناً في تفسير سورة بني إسرائيل جاء فيه أن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذٍ آدمَ فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من ينشقّ عنه الأرض ولا فخر».

وإن النار تُسَعَّر يوم القيامة بثلاثة: شهيد وعالم ومحسن، ذلك أنهم ابتغوا بأعمالهم الجزاء من المجتمع مكانةً وسمعة، وشهرة طيبة، وصيتاً ذائعاً، قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم في كتاب الإمارة:

«إن أول الناس يُقضى يوم القيام عليه رجل أُستُشهد فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت،

ولكنك قاتلت لأن يقال جريء وقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم، وعلمه، وقرأ القرآن، فأُتِيَ به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليُقال عالمٌ، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئٌ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحبّ أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليُقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار».

وإن اجتناب العيب أمر متمم لابتغاء المكانة عند الناس، وهما بمثابة وجهي عملة واحدة، إذا وجد أحدهما وجد الآخر حتماً، حيث اجتناب العيب يكون الغرض منه المحافظة على المكانة التي بلغها الفرد، لتكون هذه المكانة منطلقاً له إلى مكانة أعلى إن استطاع.

وفي مجتمع التقاليد يختلط في عقول الناس مفهومان مختلفان، وهما: الكرامة والكبرياء، فترى الناس يمدحون الكبرياء وقد ذمّها الله، وهدّد، وتوعّد من يقع فيها، فيقولون مادحين: «لقد منعته كبرياؤه» أو «إنها امرأة عندها كبرياء» والذي يستحق الإنسان أن يمدح عليه هي الكرامة التي قررها الله للجميع، فمن يحافظ عليها فهو أهل للمديح والثناء، ومن فرط فيها يستحق الذم.

وفي مجتمع التقاليد يشتم الرجل، ويعيّر بأنه مثل النساء أو الأولاد، وقد يكون من الحق أنه على الرجال ألا يتشبهوا بالنساء، وعلى النساء ألا يتشبهن بالرجال، لكن هذا المفهوم لوجوب المحافظة على التميّز بين الجنسين يختلف عما توحي به الشتائم التي تقول: إن فلاناً حقير جدير بالازدراء، فهو ليس رجلاً،

إنه امرأة، أو مثل امرأة، أو إنه ولد، أو مثل الأولاد، وإيحاء هذه الشتائم يدخل نفوس الأطفال الذين يسمعونها، وهم في عمر لا يمكنهم من فهم نسبية الأشياء، فينغرس في نفوسهم أن المرأة تستحق الازدراء، لأن الذي يكون مثلها مُزدرى، وأن الأولاد يستحقون الازدراء لأن الذي يكون مثلهم مُزدرى.

وما يغرس في الطفولة من مشاعر وتوجهات يذهب إلى اللاشعور، ويتوطد في النفس، ولن تزيله منها فكرة أو قناعة، إلا إن ترافقت القناعة مع مجاهدة للنفس، وإنه لا القناعة ولا المجاهدة تتوفران عادة لأولئك الرجال، الذين توطدت في نفوسهم مشاعر الازدراء للمرأة والطفل، ومشاعر الترفع عن أن يكون الإنسان امرأة أو طفلاً، وتكون التقاليد بذلك عاملاً هاماً في ترسيخ التمييز العنصري الموجّه ضد المرأة والطفل في كثير من المجتمعات والأفراد.

ومما يرسخ استعلاء الرجال على النساء في مجتمع التقاليد اشتمال أغلب الشتائم على المعاني الجنسية حيث يُشَبَّه المشتوم بالمرأة، وتصمه الشتيمة بأنه أهل لأن يقوم بدور المرأة في العملية الجنسية، وهذا يسمعه الأولاد في صغرهم، فتتولد منه في نفوسهم مشاعر وتوجهات تستمر معهم إلى كِبرهم، ولن تزيلها إلا تربية جديدة، ومجاهدة للنفس شديدة.

إنّ لكل كلمة يسمعها أولادنا أثراً في نفوسهم، قد يكون حسناً وقد يكون سيئاً، وقد يكون الأثر أعمق بكثير مما كنا نظن، وما بحثنا هذا كله إلا محاولة لفهم الأثر الذي تولّده كلمة "عيب" التي يسمعها أكثر الأولاد مرات لا تحصى خلال طفولتهم.

3. السبب الثالث:

إن التقاليد متبدلة بتبدل الأزمنة والأمكنة، فالتقاليد تختلف عادة من بلد إلى بلد، بل وتختلف في البلد الواحد من طبقة اجتماعية إلى طبقة، وتختلف من الريف إلى المدينة، وهذا يساعدنا على فهم السبب في تبدل سلوك الذين يهاجرون من الريف إلى المدينة، أو من بلد إسلامي إلى بلد أوروبي.

فالذي نشأ على احترام التقاليد يجد أنه مضطر إلى اتباع تقاليد الناس الذين يعيش بينهم، كيلا يبدو في نظرهم شاذاً مخالفاً، فاعلاً لما هو عيب عندهم، فاتباع التقاليد يرسخ في الناس أن الفرد منهم يجب أن يكون إمّعة، إن أحسن الناس أحسن، وإن أساؤوا أساء، بعكس ما أمرنا به رسول الله ﷺ من فعل الخير سواء أحسن الناس أو أساؤوا.

والتقاليد تتبدل بتبدل الزمان، وبخاصة عندما تحتك الأمة بأمم أخرى أقوى منها، فيقلّد الضعيف القوي، ويتبنى تقاليده.

وهذا ما نراه في هذا العصر، حيث يتبنى كثير من الناس في بلاد المسلمين التقاليد الغربية.

فذات يوم أتتني امرأة مسلمة بابنتها المراهقة وقد تعبت معها، فطلبت مني كطبيب نفسي أن أساعدها في حل المشكلة... وبعد جلسة طويلة مع الفتاة وجدتها طبيعية تماماً من الناحية العقلية والنفسية، إنما كانت المشكلة أنها تعرفت على ابن جيرانهم، وكان فتىً أكبر منها بسنتين، وعندما علمت أمها بصداقتهما ضربتها ومنعتها من الخروج من البيت إلا معها، وحرمت عليها الخروج إلى الشرفة، ولما سألت الأم عن السبب في أنها لا تريد أن تصادق ابنتها ابن الجيران، قالت: "ذلك عيب لا نعرفه في عائلتنا"، وكانت الأم سيدة تناهز الأربعين سافرة، وثوبها إلى ما فوق ركبتيها، فحاولت أن أبين لها أن تربية ابنتها على اجتناب العيب لم يولد في نفس البنت دافعاً لعدم مصادقة الشبان، ذلك أن سفور الأم وثوبها القصير كان "عيباً" في نظر أمها يوم أن كانت هي في عمر ابنتها، واليوم لا تراه هي عيباً، ولا تلوم ابنتها السافرة على سفورها... والبنت من جيل جديد لم تكن ترى في حديثها مع ابن جيرانهم الشاب مشكلة، وتتساءل "ما العيب في ذلك؟".

وهكذا تتبدل التقاليد، فما كان عيباً قبل ثلاثين سنة صار مقبولاً الآن، وما كان خلقاً يُمتدح قبل ثلاثين سنة صار عيباً الآن، ففي كثير من الأسر في البلاد

الإسلامية صار من العيب ألا تصافح الفتاة أو المرأة عموماً من يمد يده من الرجال ليصافحها، وصار الامتناع عن مصافحة الرجال دلالة على قلة اللباقة والمجاملة... ويستطيع كل قارئ أن يبحث حوله عن أمثلة أخرى على تبدل التقاليد في بلادنا من النقيض إلى النقيض خلال جيل واحد.

لكن الدين الحق يمتاز بالثبات، فما كان حراماً بالأمس هو حرام اليوم، وسيبقى حراماً إلى يوم القيامة.

وإن كان في الإسلام مرونة بحيث يلائم كل الأزمنة، فذلك ليس في كل شيء، إنما هي مرونة لاستيعاب بعض التطورات في حياة البشر، فلن يأتي يوم يصير فيه الخمر حلالاً، ولن يأتي يوم يصير فيه سفور المرأة وخروجها كاسية عارية حلالاً.

4. السبب الرابع:

إن التقاليد تميلُ إلى أن تكون آصاراً وقيوداً قليلة المرونة، وما قول أحدهم: "كلام الناس لا يرحم" إلا تعبيراً على الصلابة الأصيلة في بنية التقاليد، بينما الإسلام قائم على اليسر، ورَفع الحرج، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6].

وقال أيضاً: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: 78].

وكان رسول الله ﷺ لا يخيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.

ولنتبين الاختلاف في تناول الأمور بين التقاليد والدين من حيث الحرج ورفع الحرج، نأخذ مثالاً "الهدية".

لقد حث الإسلام على الهدية بين المؤمنين، لما تولّده من حب ومودة بينهم، قال النبي ﷺ فيما رواه الطبراني في الأوسط: «تهادوا تحابوا».

وقال أيضاً: «يا نساء المؤمنين! تهادَيْنَ ولو فِرْسَنَ شاة، فإنه يُنْبتُ المودة، ويُذْهِبُ الضغائن».

وروى الترمذي في أبواب: البر والصلة عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية ويثيب عليها، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

فقبول الهدية سنّة، والإثابة عليها بأن يقدم هدية للذي أهداه إن قدر على ذلك سنة، وإن لم يقدر، أو لم يرغب في الإثابة، فيكفيه أن يشكر الذي أهداه. روى الترمذي في أبواب: البر والصلة قوله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» وقال: هذا حديث صحيح.

فلم تكن الهدية فرضاً، ولم تكن الإثابة عليها واجباً، إنما سنة لا يؤاخذ من تركها، ومن فعلها كان له الثواب والأجر، وكان له الخير الذي تأتي به سنة رسول الله ﷺ في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

أما في مجتمع التقاليد كما هو الحال في أكثر بلدان المسلمين، فقد اختفت الهدية التي تأتي دون مناسبة، أو كادت، تلك الهدية التي يأتيك بها قريب، أو صديق حبّاً بك، دون أن يكون هنالك مولود، أو عرس، أو غير ذلك، فتكون هديته تعبيراً عن حبه، فتولد في نفسك الحب له، ويتحقق قوله ﷺ: «تهادوا تحابوا».

إنما الذي عليه الناس الآن أن الهدية في المناسبات واجبة، فللزواج هدية، وللولادة هدية، وللسفر هدية، وللحج هدية، وللمرض هدية، وللبيت الجديد هدية، وللعمل الجديد هدية، وللنجاح في المدرسة هدية... بل وحتى الموت صارت له هدية.

والذي يُقصّر فلا يأتي بهدية فهو إما فقير لا يملك ثمنها، أو بخيل نتن، أو غير محبّ لأصحاب المناسبة، ومن منا يسره أن يبدو واحداً من هؤلاء الثلاثة في نظر أصدقائه، وأقربائه، وبخاصة في مجتمعات التقاليد؟

لذا ترى الواحد منا يستدين ليؤدي واجباً اجتماعياً.

ولا تقف المشكلة عند هذا الحد من تحمل ما لا نطيق، فأنت عندما قررت أن تقدم لهم هدية كما هي (الأصول) وكما هو الواجب يكون عليك التفكير في انتقاء ما تقدمه بحيث يكون نافعاً لهم ينال إعجابهم، ويليق بمكانتك أنت، مع ملاحظة الأصول في ذلك أيضاً، فهدية من طعام يصلح مؤونة، مقبولة في الريف، مرفوضة في المدينة، فأنت تفكر ما الذي يمكن أن تقدمه لهم، فإن كان ينقصهم شيء في بيتهم، أداة كهربائية أو ما شابه، كان الأمر سهلاً عليك، أما إن كانت كل الأساسيات لديهم، ولا ينقصهم في بيتهم شيء، لم يكن أمامك إلا شراء التحف والصور وما شابه من الكماليات.

وعندما تقدم تحفة إلى صديقك أو قريبك فهل تراه يسر بها كثيراً؟ لو كانت هديتك له مجانية حقاً، فإن أي شيء صغر أم عظم يسر، لكنها هدية في الظاهر ودين في الحقيقة، فأنت تتوقع أن يثيبك عليها هدية بمثل قيمتها، أو أكثر عندما تحين مناسبة عندك، وهو يشعر أن عليه أن يفعل ذلك وإلا تكلم عليه الناس، والناس هنا هم أنت أيها الصديق المحب الذي قدمت له الهدية، والذين سوف تحدثهم عن تقصيره في حقك عندما تكون لديك مناسبة، ولا يأتيك هو بهدية.

إذاً في مجتمع التقاليد عندما تصلك هدية، فإنك تدرك أن الذي سيدفع ثمنها ولو بعد حين هو أنت.... إذاً حقيقة الأمر أن من قدم لك هدية قام بشرائها نيابةً عنك لا أكثر، وعندها سوف تشعر بالغيظ عندما يأتيك بما لا يعجبك، أو بما لا يلزمك، وكذلك تشعر بالغيظ عندما يشتري لك تحفة أنت ستدفع ثمنها في المستقبل على كل حال، بينما لو خيرت لما اشتريتها لأنك بحاجة إلى مالك لأمر أهم.

ثم لو تفكرنا بالمشكلة على مستوى أمة بكاملها، لتخيلنا كم تنفق هذه الأمة ثمن تحف وصور وما شابه في هداياها المتبادلة؛ التي لم تعد تولد الحب

في نفوس أبنائها، فالبيوت مملوءة بأشياء لو خير الناس لما اشتراها أحد لنفسه بنفسه، إنما يشتريها فلان لفلان هدية في مناسبة، ثم يشتري له هو بالمقابل مثلها في مناسباته، وبهذا صارت الهدية في مجتمع التقاليد باب إنفاق وضياع للمال فيما لا فائدة منه، وفيما لا نريده لو كان أمرنا بيدنا.

فكم من الناس من يحتفظ بما جاءه من هدايا لا يلمسها حتى تبقى جديدة، فيقدمها إلى أصحابه أو أقربائه في مناسباتهم متخلصاً بذلك منها، وموفراً على نفسه ثمن أشياء غير نافعة؟.

إن روح الإلزام قد أفقدت الهدية قيمتها وأثرها في النفوس، وجعلتها بمثابة ضريبة تؤدى؛ مما جعل الواحد منا لا يفرح حق الفرح عندما يكون صديقه في مناسبة سعيدة؛ لأن هذه المناسبة تعني له ضريبة تؤدى على شكل هدية.

ويستطيع القارئ الكريم أن يتفكر في أمثلة أخرى على ذلك، وخاصة مراسيم الخطوبة، والزواج، واحتفالات الزواج، وشروط بيت الزوجية، وما إلى ذلك من تعقيدات، كل من الشاب والفتاة يتمنى تجاوزها، كي يجمعهما بيت واحد صغير بسيط، كما يدعو الإسلام، حيث جعل الإسلام قلة النفقات، وبساطة المراسيم في الزواج، دليلاً على الخير والبركة في هذا الزواج، لا على الفقر، والبخل، ورخص البنت على أهلها كما تدعي التقاليد.

5. السبب الخامس:

ومما يجعل التقاليد غير صالحة لتنظيم حياتنا، ولقيام أخلاقنا على أساسها مقارنة بالإسلام: أن التقاليد تولد في النفوس حب الظهور، ومراءاة الناس، وهذا ما يجعل أعمالنا باطلة يوم القيامة، لا ثواب لها.

وقد رأينا كيف تسعر النار يوم القيامة بشهيد، وعالم، ومحسن.

وإنني أجد الآن مناسبة للاستطراد قليلاً لألفت الأنظار إلى أن مجتمعاتنا اليوم قد قل فيها أثر التقاليد، وضعف ضغطها على الناس، من حيث التزامهم بالمظاهر الإسلامية في حياتهم، فعلى الرغم من أن المحجبات أقل في هذه الأيام مما كان عليه الحال قبل جيلين مثلاً، لكن نسبة أكبر منهن هذه الأيام يلتزمن بالحجاب إيماناً وطاعةً واحتساباً.

وإن التراجع في المظاهر الإسلامية في حياتنا نتيجة التأثير الثقافي الغربي علينا، كان إلى حد كبير على حساب التقاليد، وما زال للدين رصيده الكبير في النفوس، بل زاد لدى الناس العلم بالدين، وفقه تفصيلاته، وصارت عقيدتهم أقل ارتباطاً بالخرافة.

إن مجتمعاتنا تقترب من الإسلام أكثر على الرغم من تبدل التقاليد فيها، ومن رواج تقاليد أكثر تعارضاً مع المظاهر الإسلامية، التي نعمت بها هذه المجتمعات، قروناً طويلة.

لقد فسحت قرون الانحطاط الطويلة التي مرت بها مجتمعاتنا، المجال أمام الكثير من التقاليد الجاهلية العربية، لتعود إلى السيطرة على حياة الناس، فعادت الأنثى عاراً، والذكر لا يعيبه شيء، حتى لو زنى، وعاد الفخر ليشغل النفوس، وقد نهى عنه الله ورسوله ﷺ، وعاد الكثير الكثير من قيم الجاهلية، التي أبطلها الإسلام، لتجد لها مكاناً تشغله في حياة المسلمين، على حساب الإسلام نفسه، إذ قلص الحيز المخصص للدين ليكون صلاةً، وصوماً، وحجاً، أما ما عدا ذلك من شؤون الحياة، فانفردت بها التقاليد، أو كادت.

لكننا اليوم بفضل الله أخذنا نعود إلى الله، وإلى الدين الحق، فنحن على أعتاب مرحلة جديدة، من مراحل تاريخ الإسلام، مرحلة بشر بها النبي ﷺ، وقال: «إنها ستكون خلافة على منهاج النبوة» ولن يكون ذلك، قبل أن يعود الإسلام إلى تنظيم حياتنا كلها، لا أن تكون حياتنا قسمة بين الإسلام و التقاليد، وذلك سيكون بإذن الله، وإن كان ذلك قد يستغرق جيلاً أو جيلين آخرين، فكل

ما حولنا يؤكد ذلك. وما علينا للتأكد منه، إلا أن نتساءل عن حال الإسلام، في أي بلد من بلداننا الإسلامية، كيف كانت قبل خمسين عاماً، وأين كان يقف المسلمون من الإسلام، وكم كان مقدار الجهل والخرافة في حياتهم، وفهمهم لدينهم، مقارنةً بما انتشر بينهم اليوم، من علم بدين الله، ومن وضوح في العقيدة، التي هي أساس كل شيء.

والحديث، الذي رواه أحمد وغيره ووثقه الهيثمي وصححه الواقع التاريخي، يتحدث بشكل واضح، عن مراحل الحكم في الأمة الإسلامية، كما وقعت:

«إن أول دينكم نبوة ورحمة، وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم يكون ملكاً عاضاً، فيكون فيكم ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعه الله جل جلاله، ثم يكون ملكاً جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، تعمل في الناس بسنة النبي، ويلقي الإسلام بجرانه في الأرض، يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدع السماء من قطر إلا صبته مدراراً، ولا تدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئاً إلا أخرجته».

6. السبب السادس:

في مجتمع التقاليد تزر الوازرة وزر أخرى، أي: يحملك الناس ذنب أبيك، أو أخيك، أو أختك، أو أمك، أو غيرهم من أقربائك، بينما في دين الله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: 164] ولعل مثالاً يوضح ذلك.

عندما يقتل رجل رجلاً من عائلة أخرى، فإن أي رجل يمت إلى القاتل بقرابة يصبح في خطر من أن يؤخذ بثأر القتيل منه، لقد كان هذا سائداً في جميع أرجاء العالم الإسلامي تقريباً، لكنه اليوم انحسر عن المدن، ومازالت الأرياف تعاني

منه، حيث يعتبر كل فرد في عائلة القاتل مسؤولاً عن الجريمة. أما مبدأ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فقد غاب عن الأذهان، ولربما أقروه في أشياء كثيرة إلا الثأر؛ لأن الثأر في نظرهم إستعادة لكبريائهم التي ذهبت، وإنقاذاً لشرفهم ومكانتهم بين الناس التي ضاعت؛ عندما جرؤ أحد على قتل واحد منهم، فهم سيبقون موضع كلام الناس، ومحط ازدرائهم، وسخريتهم حتى يثبتوا للجميع أنهم رجال حقاً، ولن يكون لهم ذلك إلا إن هم قتلوا رجلاً برجل، وستبدو رجولتهم أعظم إن هم قتلوا عدة رجال برجل، وإن هم انتقوا لذلك خيرة شباب العائلة الأخرى، لتكون الضربة موجعة، وفي الصميم.

أوليست قصص الثأر، التي لا تنتهي في الريف الإسلامي، بمثابة داحس وغبراء جديدة، تشهدها كل قرية؟!

إنها الجاهلية العربية القديمة، قد عادت بعد القرون، تملأ الرؤوس بالحمية والكبر، فلا يعود في واقع الحياة فرق بينها وبين رؤوس عتاة قريش، إلا أن رجال اليوم مسلمون، لكنهم عندما يقتل واحد من عائلتهم يصبحون كلهم مثل أبي جهل، وتصبح نساؤهم في حقد هند زوجة أبي سفيان، التي لم يشف صدرها من حمزة عم النبي ﷺ، إلا أن يقتل، وتستخرج كبده وتمضغها!.

وفي عصر الجاهلية العربية العائدة من وراء القرون، يصبح العفو عن القاتل، مصدر ذل ومهانة للذي يعفو، ودلالة على الضعف والخنوع، وعلى أن رجال عائلة القتيل نساء.. بينما أعطى الله الحق لأولياء القتيل، في أن يطلبوا القصاص من القاتل نفسه، كي يقتل بأمر القاضي، جزاءً لقتله ولدهم، ثم شجع الإسلام على العفو، ومدح الذي يعفو؛ لأن المؤمنين كلهم إخوة، القاتل والمقتول.

إن مجرد الالتجاء إلى القضاء، والامتناع عن أخذ الثأر باليد، يعد مبرراً لازدراء أهل المقتول، ولاعتبار أنهم عجزوا، عن أن يأخذوا بثأر قتيلهم بأيديهم.

فلنتأمل كيف تنقلب الموازين، وكيف تتعارض التقاليد مع دين الله، تعارضاً جوهرياً.

7. السبب السابع:

إن التقاليد لا تصلح أساساً لأخلاقنا؛ لأن مجتمع التقاليد، مجتمع غيبة، وقيل وقال، وخوض في أعراض الناس، كما رأينا. فبئس الأخلاق أخلاق تحرسها الغيبة، والسخرية، والهمز، واللمز، والتنابز بالألقاب!.

8. السبب الثامن:

التقاليد لا تصلح أساساً لأخلاقنا؛ لأنها قابلة للتغيير بجهود الأعداء، وإن كان تغييرها قد يستغرق السنين الطويلة، بل ربما أجيالاً عدة، لكنه أمر ممكن، وبخاصةً بعد أن عرف علماء الاجتماع، الكثير عن التقاليد، وكيف تنشأ وتستمر، في مجتمع من المجتمعات.

وأعداء الأمة الإسلامية، يستطيعون تجنيد ما يلزم ومن يلزم من علماء الاجتماع، وعلماء النفس الاجتماعي، للقيام بهذه المهمة، ولديهم الصبر والمثابرة من أجل ذلك.

أما دين الله، فلن يقدروا على تغييره مهما حاولوا، فالدين الذي تمتد يد التغيير إليه، لا يبقى ديناً بعد أن تغير، وحتى يبقى ديناً، يجب أن لا تمتد إليه يد بشر بتغيير.

وقد يسأل سائل بعد هذا كله: ما المانع من بقاء بعض التقاليد الحسنة إلى جانب الإسلام؟ أوليس ذلك مفيداً في جعل الإنسان أكثر التزاماً بدينه، إذ هو يخشى كلام الناس، إن فعل معصية ما؟

ثم، أوليس ذلك مفيداً، في جعل الإنسان أكثر التزاماً بدينه، حين يندفع لفعل الصالحات اندفاعاً أكبر؛ لأن الناس سوف يثنون عليه، ويمدحونه؟

أولم يقل الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾ [التوبة: 105]؟

أولم يقل الله تعالى أيضاً: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾ [الأعراف: 199]؟

أولم يقل النبي ﷺ: «رحم الله امرئ جب الغيبة عن نفسه»؟

ولنبدأ من حيث انتهى الاعتراض. أما القول المنسوب إلى النبي ﷺ: «رحم الله امرئ جب الغيبة عن نفسه» فإنه ليس حديثاً وإن كانت الحكمة تقتضي أن لا يضع المؤمن نفسه موضع الاتهام والشبهة وبالتالي الغيبة، يفعل ذلك حماية وذوداً عن عرضه، كما نبه نبينا ﷺ صاحبيه اللذين رأياه في الليل مع امرأة لا يستبينان هويتها فقال لهما: «علَى رِسْلِكُما، إنَّما هي صَفيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ». قالا: سبحان اللهِ يا رسولَ اللهِ، وكَبُرَ عليهما ما قال، قال: «إنَّ الشَّيطانَ يَجْري مِنَ ابنِ آدَمَ مَبلَغَ الدَّمِ، وإنِّي خَشيتُ أنْ يَقذِفَ في قُلوبِكُما».

إن الاستعانة بالخوف من كلام الناس لمنع المؤمن من معصية الله، والاستعانة بالرغبة في مديح الناس لدفع المؤمن إلى فعل الطاعات، هو الرياء بعينه، وهو الشرك الخفي، الذي حذرنا منه رسول الله ﷺ.

قال تعالى عن المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)﴾ [النساء: 142].

وقال عنهم أيضاً: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون:4-7].

فالرياء الخالص هو خلق المنافقين، وهو خلق الكافرين أيضاً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)﴾ [النساء:38].

أما المؤمن فقد يقع في الرياء، وذلك حين يتوجه بالطاعات إلى الناس يتقرب بها إليهم، يبتغي بها رضاءهم، وثناءهم، وإعجابهم به، وقد تهديه فطنته إلى أن يرمي عصفورين بحجر واحد، فينوي بعمله عبادة الله ورئاء الناس معاً، فيقع في الشرك الخفي، إذ جعل الناس شركاء لله في عمله الذي عمله.

والعمل الذي ينوي به المؤمن عبادة الله وثناء الناس، عمل لا يقبله الله تعالى، ويمكن تشبيه ذلك بهدية قيمة، يقدمها رجل إلى الملك، لكنه يقول للملك: هذه الهدية لك، ولعبدك أو خادمك، هي بينكما مشتركة، ولله المثل الأعلى، فالملك المخلوق، يترفع عن قبول تلك الهدية، مهما كانت ثمينة، ويقول لمن أهداها إليه: أعطها للعبد، أو للخادم، فأنا لا أقبل أن يشاركني عبدي، أو خادمي في شيء.

أوَ يقبل الرب العظيم العلي المتعال أن يشاركه العبيد في شيء؟!

إن الذي يجعل الملك شريكاً مع خادمه في هدية، عليه ألا يتوقع من الملك أن يثيبه عليها، وكذلك الذي يشرك الناس مع الله في أعماله، عليه ألا يتوقع أن يثيبه الله عليها.

روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري، تركتُهُ وشركَهُ».

وروى ابن ماجه في سننه: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك» [في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات].

كما روى ابن ماجه قول النبي ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك».

وقال ﷺ: «إن أخوف ما أتخوف على أمتي، الإشراك بالله، أما إني لست أقول يعبدون شمساً، ولا قمراً، ولا وثناً، ولكن أعمالاً لغير الله، وشهوةً خفيةً» [في الزوائد: في إسناده: عامر بن عبد الله لم أر من تكلم فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات].

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قال أبو سعيد: قلنا: بلى. فقال: «الشركُ الخفيُّ، أن يقومَ الرجلُ يصلي، فيزين صلاته لما يرى من نظر رجلٍ» [في الزوائد إسناده حسن].

وفي الحديث المتفق عليه، يقول رسول الله ﷺ: «من سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومن يرائي يرائي الله به».

قال النووي - رحمه الله - مفسّراً: «سمّع» بتشديد الميم، ومعناه: أظهر عمله للناس رياءً. «سَمَّعَ الله به» أي: فضحه يوم القيامة.. ومعنى «من راءى» أي: أظهر للناس العمل الصالح، ليعظم عندهم. «راءى الله به» أي أظهر سريرته على رؤوس الخلائق. [انظر رياض الصالحين، الحديث 1619].

فقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: 105] لا يعني الرياء أبداً، إنما نستطيع أن نفهمه جيداً في ضوء الأحاديث الصحيحة التالية:

روى مسلم عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيتَ الرجلَ يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

وروى ابن ماجه في سننه في كتاب الزهد: عن أبي ذر أيضاً أنه - رضي الله عنه- سأل النبي ﷺ عن ذلك، يقول أبو ذر: قلت له الرجل يعمل العمل لله فيحبّه الناس عليه؟ قال: «ذلك عاجل بشرى المؤمن».

وروى ابن ماجه في سننه في كتاب الزهد: عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: قال رجلٌ لرسول الله ﷺ: كيف لي أن أعلم إذا أحسنت وإذا أسأتُ؟ قال النبي ﷺ: «إذا سمعت جيرانك يقولون أنك قد أحسنتَ فقد أحسنت، وإن سمعتهم يقولون قد أسأتَ فقد أسأتَ» [في الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات].

وروى ابن ماجه أيضاً في كتاب الزهد: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قال رجل: يا رسول الله! إنّي أعملُ العمل فَيُطَّلَع عليه فيعجبني؟ قال: «لك أجرانِ: أجر السرِّ وأجر العلانية».

وروى أيضاً في كتاب الزهد: عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة من ملأ اللهُ أذنيه من ثناء الناس خيراً وهو يسمع، وأهل النار من ملأ أذنيه من ثناء الناس شراً وهو يسمع» [في الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات].

إذاً الرياء هو ما دخلت في نية فاعله عندما فعله الرغبة في ثناء الناس عليه، والأعمال بالنيات، أما ثناء الناس الذي يأتي بعد أن يقع العمل المقصود به وجه الله تعالى وحده، فإنه لا يؤثر في صحة العمل وقبول الله له؛ لأن ثناء الناس لم يدخل في النية، إنما ثناؤهم هو «عاجل بشرى المؤمن» كما قال ﷺ.

والمسلم الملتزم بالتقاليد يواجه مشكلة أخرى عندما تتعارض التقاليد مع الإسلام في أمر من الأمور، فأيهما يتبع المسلم: الدين أم التقاليد؟

وقد مر معنا مثال الثأر، حيث يأمر الله ولي المقتول أن يرفع الأمر إلى القاضي، ويترك القاضي يقتص له من القاتل، ولا يجوز للمسلم أن يقتل القاتل بنفسه، لأنه بذلك يكون افتئات على السلطان، أي: تدخل في عمل الحاكم دون أن يوكله، أو يكلفه بذلك.

ولي المقتول يقع عادة تحت ضغط العادات والتقاليد؛ التي تلبسه ثوب العار حتى يأخذ بثأره، ولا فرق ممن يأخذ بهذا الثأر من القاتل نفسه، أم من

أخيه، أو ابنه، أو ابن عمه، المهم أن يقتل رجلاً من عائلة القاتل، فيكون رجل برجل.

إن المؤمن إن هو وقع في مثل هذا الموقف، فسوف يجد أن التقاليد تقف حائلاً بينه وبين أمر الله.

وما أسهل أن نقول: (عليه أن يخالف التقاليد، وأن ينصاع لأمر الله)، وما أصعب التطبيق على من نشأ في مجتمع يرهب العيب والعار، ويرى الموت أهون من العار.

ولنضرب على تعارض التقاليد مع الدين أمثلة أخرى من الحياة اليومية.

رجل عنده بنت صالحة وجاءه من يرضى خُلُقه ودينه فخطبها، لكنه فقير، هل يزوج البنت على مهر قليل، وشروط يسيرة بالنسبة للسكن وأثاث بيت الزوجية؟ لكن إن فعل هذا ماذا سيقول الناس عنه؟ (إنه لم يصدق أن جاءه من يخطب ابنته فزوجها له هكذا حتى يتخلص منها).

إن تزويج هذا الرجل ابنته على هدي رسول الله ﷺ سيحتاج منه جرأة وشجاعة كبيرتين، كي يخالف التقاليد التي تعتبر المهر الغالي دليلاً على مكانة أهل البنت، وقدرهم.

ماذا نقول عن بعض مجتمعات المسلمين في شبه القارة الهندية حيث عادوا إلى تقليد من الجاهلية البوذية، يكون بمقتضاه أن تقدم المرأة مبلغاً كبيراً من المال للرجل الذي يخطبها، ويكتفي هو بدفع مهر رمزي من أجل الحلال والحرام؟ لذا تراهم هناك يتهافتون على بنات الرجل الغني الذي يستطيع أن يدفع، ويعزفون عن بنات الرجل الفقير الذي لا يستطيع أن يقدم لهم الكثير.

وترى الكثير من فتياتهم يذهبن إلى بلاد غنية يعملن خادمات لعدة سنوات حتى تؤمن الواحدة منهن (المهر) الذي ستجد به شاباً يدعي الرجولة.

ولذا تراهم شديدي الفرح بالمولود الذكر، شديدي الحزن من ولادة الأنثى، وخاصة إن رزق أحدهم بعدة إناث، إذ من أين سيأتي بالمال لتزويجهن جميعهن؟

ومثال آخر :

فتاة مراهقة قد ملأ الإيمان قلبها، فالتزمت بالإسلام عباداتٍ وسلوكاً، وعندما يأتي إلى بيتهم رجال أقرباء، أو أصدقاء، تمتد الأيدي لتصافحها، وقد تكون الأمور أسوأ كما هو الحال افي أحد البلاد الإسلامية، حيث صارت العادة أن يُقبّل الرجل زوجات أقربائه، أو بناتهم، كما يفعل الأوربيون، وإذا ما رفضت أن تصافح (أو تقبل) رجلاً ليس لها بمحرم تغضب عائلتها؛ لأنها تكون بذلك قد ارتكبت عيباً، وتسمعها التوبيخ، والتقريع، والسخرية، وقد يقال لها: (ولم لا تصافحينه؟، وماذا في المصافحة؟ إنه ابن عمك، إنه زوج أختك، إنه ليس غريباً... ومما تخافين؟ إنه لن يأكلك) وهكذا تساهم التقاليدُ في جعل القبض على الدين كالقبض على الجمر في هذا العصر.

ومثال آخر :

زوجة شابة في بيتها ولا أحد معها.. زوجها ذهب لشأن من شؤونه ولن يعود قبل بضع ساعات... وإذا بالباب يطرق فتفتح، فتجد شقيق زوجها الشاب واقفاً بالباب، لقد جاء من مكان بعيد لزيارتهم، فماذا تفعل؟ أتدخله بيتها الصغير ريثما يأتي زوجها حيث تكون بينها وبينه خلوة محرمة؟ أم تعتذر له، وتطلب منه أن يتدبر أمره حتى يعود زوجها؟ ولكن إن هي اعتذرت، ولم تأذن له بالدخول ماذا سيقول الناس عنها؟ إنها لا ذوق عندها إذ تترك شقيق زوجها ينتظر خارج البيت ريثما يأتي أخوه... ولم لا تأذن له؟ هل سمعت عنه أنه فاسق يغتصب النساء إن خلا بهن؟ ما هذا؟.. إنه ليس بغريب... إنه شقيق زوجها...

إن هي منعته من دخول بيت أخيه؟ لن يرحمها مجتمع التقاليد، مع أن رسول الله ﷺ قد نهى عن الدخول على المرأة الواحدة إلا لجماعة من الرجال، أو كان الذي يخلو بها أحد محارمها، وعندما سُئل عن (الحمو) أي: شقيق الزوج أو ابن عمه قال: «الحمو الموت» [متفق عليه].

فهو لم يتساهل في أمر شقيق الزوج، أو ابن عمه، بل شدّد أكثر.

إن التقاليد المناقضة للإسلام قد تختلف من بلد لآخر، ولكنها موجودة في كل بلد، وبخاصة التقاليد الجديدة المستوردة من الغرب التي أخذت تحل محل التقاليد القديمة، وكثير من العائلات المسلمة تعيش وفقها، وتعيب على من يخالفها، وتنشيء أولادها على احترامها وتقديسها.

كم من الناس المتمدنين يجرؤ على أن يلبس زياً قد (انقضت موضته) وبخاصة النساء؟ إنها تعرض نفسها لأن تبدو فقيرة ليس لديها المال كي تشتري ملابس جديدة، أو بخيلة مقترة، أو لا ذوق لها... فالثوب الجميل هذا العام يصبح غير جميل بعد سنة، ولا مراعاة في (الموضة) لستر، أو حلال ، أو حرام.

ليست مخالفة التقاليد بالأمر الهين على النفس، ويستطيع من يريد التأكد من ذلك أن يتخيل نفسه قد خالفها، وفَعَلَ أي شيء يعتبر عيباً أو تقصيراً، وإن كان جائزاً في الدّين، ليرى ما للمجتمع من ضغط رهيب على نفوسنا، وذلك عائد إلى أننا نشأنا على الخوف من الوقوع في العيب، إذ لم تكن هناك كلمة توصف بها الأفعال المحرمة إلا كلمة (عيب) وكل ما ينهى عنه الأهل أولادهم يكون عيباً، والقليلون الذين قالوا إن الحرام حرام إلى جانب العيب؛ لذا نرى أن كثيرين يخالفون الشرع، ويقعون في الحرام في سهولة عجيبة، لكنهم لا يجرؤون على ارتكاب العيب جهاراً .

وقد يبدو استعمال كلمة عيب للنهي عما هو غير مرغوب به من تصرفات غير محرمة في الدين، أمراً لا بأس به، ولكن ذلك غير صحيح، فالطفل الصغير عندما يصرخ به أبوه، أو يضربه على ما فعله، ويقول له (عيب) يتعلم أن العيب

هو ما يجب اجتنابه، والانتهاء عنه، وعدم ارتكابه، ويتكرر الأمر بحيث ينغرس في نفس الطفل الصغير الخوف من العيب انغراساً عميقاً يصل إلى عقله الباطن، ويكون الحال أشبه بالرهاب النفسي (Phobia) حيث ينشأ الإنسان، وعنده خوف عظيم من أشياء معينة، رغم أنه مقتنع عقلياً أنها أشياء لا تستدعي الخوف على الإطلاق فترى الرجل يخاف أن يبقى في غرفة مظلمة وحده، فينام والمصباح مضاء مع أنه متأكد أنه ليس هناك ما يخيف، ولكنه مع ذلك لا يستطيع ألا يخاف. ذلك أن خوفه هذا مغروس في عقله الباطن (لا شعوره) ويحتاج إلى علاج متخصص لعلاجه منه. وهكذا ينشى كثير من الآباء والأمهات أولادهم على (رُهاب العيب).

عندما يكبر الولد يكتشف لكلمة عيب معنى جديداً، ويفهم أن العيب هو ما يستنكره الناس، ولا يرضون به، وكان قد تعلم في صغره أن العيب هو ما يجب اجتنابه، وعدم الوقوع فيه.

أوليست تربية الأولاد على هذا تعبيداً لهم للمجتمع بحيث يكون وجوب طاعة المجتمع مغروسة في قلوبهم؟

والتقاليد المهمة عادة هي تقاليد الفئة التي يحرص الفرد على الانتماء إليها، فابن المدينة لا يلتزم تقاليد القرية، وابن القرية لا يهتم لتقاليد المدينة، وقد يعجب ابن القرية بالمدينة وبخاصة إذا انتقل إليها، فيتبنى عاداتها وتقاليدها؛ لأنه يريد أن يكون واحداً من أولئك الذين يعيشون فيها، وقد أعجبته حياتهم وطبقتهم.

إن الحرام كما ذكرنا أهون على كثير من النفوس من العيب، وهذا يرينا إلى أي حد ما تزال مجتمعاتنا مجتمعات تقاليد، وهناك مسافة تفصلها على أن تكون المجتمعات الإسلامية المنشودة.

لما كان موضوع الدين والتقاليد مشتركاً، وهو الأخلاقُ، والسلوك، والعلاقات بين الناس، كان أي جهد تربوي ينفق على التربية على العيب سيكون

على حساب الجهد الذي يمكن صرفه على التربية على الإسلام، وكذلك كان أي حيز تحتله التقاليد في النفوس على حساب الحيز المفروض أن يحتله الإسلام.

التقاليد لا تقوي الالتزام إنما هي منافس للدين، والعيب منافس للحرام، وكمال التوحيد لله لا يكون إلا بإخلاص العبادة له وحده سواء سخط الناس أم رضوا، ولا يكون إلا عندما نتحرر من اشتغالنا الدائم بما يقول الناس عنا ثناءً وذماً.

لقد تحرر الغربيون من التقاليد، ومن العيب الموروث إلى حد كبير، ولا احترام في حياتهم إلا للقانون؛ لذا نراهم يعيشون حرية يغبطهم عليها الذين ينظرون في عيون الآخرين ووجوههم كلما أرادوا فعل شيء، فلم لا نتحرر نحن أيضاً، فلا نقيم لغير شرع الله وزناً؟ ثم من هم الناس الذين نخاف كلامهم؟ أو لسنا نحن الناس؟ أنا، وأنت، وهو، وهي؟ لماذا نقيد بعضنا بعضاً بقيود التقاليد؛ التي قلما تأتينا بغير الحرج؟ أو لسنا جميعاً سننعم بالحرية إن ترك بعضنا بعضاً لشأنه طالما أنه لم يرتكب منكراً في الدين؟

لا بد من أجل ذلك من البدء بأنفسنا، ومن حماية أولادنا مما أوقعنا فيه آباؤنا وأمهاتنا من خوف العيب، ورهبته.

لكن ليس كل ما نريد أن ننهي أولادنا عنه حراماً، فكيف ننهاهم عن الأمور التي نريدهم ألا يفعلوها وهي غير محرمة؟

ليست هنالك مشكلة فيما يتعلق بما حرمه الله، إذ الحلال بيّن، والحرام بيّن، ونستطيع أن نقول لأولادنا: إن الكذب حرام، والسرقة حرام، وترك الصلاة حرام، وهكذا . . .

لكن يجب أن نحذر أن نقول لأولادنا عن المكروه: حرام، بل الحرام حرام، أما المكروه فليس حراماً، إنما هو شيء لا يحبه الله لنا، وهذا التمييز بين المكروه والمحرم ضروري ليتعلم أولادنا أن المحرمات في دين الله أمور قليلة معدودة، وأن دين الله ليس دين قيود وممنوعات.

ثم ليتعلم أولادنا كيف أن الله لم يحرم علينا كثيراً من الأشياء التي كرهها لنا ونحن نتجنبها لذلك، لكن لا ننكر على الآخرين إن وقعوا فيها، والمكروه مفهوم رئيس مع المستحب والحرام والفرض.

أما ما سوى الحرام والمكروه من تصرفات لا نريد أولادنا أن يرتكبوها، فما ذلك إلا لعلّة فيها لا تعجبنا، فلم لا نبين لأولادنا تلك العلة؟

بعض تلك التصرفات ضار بالصحة، أو المال، أو الغير، ويمكننا أن نبين لأولادنا أنها ضارة، وأن نعلمهم أنه لا ضرر ولا ضرار، وأن علينا أن نحرص على ما ينفعنا، وبذلك ننمي لديهم نوعاً من الحكمة، والتدبير، والمنطق العملي، فقد دعانا النبي ﷺ لأن نحرص على ما ينفعنا إذ يقول: «... احرص على ما ينفعك...».

وبعض تلك التصرفات التي ننهى عنها أولادنا لا نحبها؛ لأنها غير جميلة، ويمكن أن نبين ذلك لهم، فنقول لهم عن الجميل جميل، وعن القبيح قبيح، ونعلمهم حب الجمال، وتقديره، والنفور من القبيح، فالله جميل يحب الجمال كما جاء في الحديث الشريف، وهذا ينمي عند أولادنا الذوق الجمالي، الذي هو شيء أصيل في الإسلام، كما أنه مكوّن رئيس في أية حضارة إنسانية راقية.

وقد دعانا النبي ﷺ إلى أن نهتم بأنفسنا من الناحية الجمالية، فمن كان له شعر فليكرمه، وحثّنا على أن نكون شامة بين الناس، والقرآن دعانا للتجمل والتزين عند كل مسجد، قال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف:31-32].

وبعض تلك التصرفات لا نريد أولادنا أن يرتكبوه؛ لأنه خطأ في أسلوبه، ولا يحقق المطلوب، فنبين لهم الخطأ والصواب، وننمي عندهم الحرص على

الصواب واجتناب الخطأ، وهذا يجعلهم يفكرون لأنفسهم، ويحكمون: هذا صواب، وهذا خطأ.

وتنمية القدرة الذاتية عندهم على محاكمة الأمور والحكم عليها، خير لهم ألف مرة من أحكام جاهزة لا مجال لهم في التفكير فيها، إنما (هذا عيب وكفى!.

وبعض تلك التصرفات ننهى أولادنا عنه؛ لأنه مزعج للناس، ويمكننا أن نعلم أولادنا أن علينا ألا نؤذي الناس بإزعاجهم، بل يجب أن نتصرف معهم كما نحبهم أن يتصرفوا معنا، وهذا ينمي عند أولادنا ملكة تفهم مشاعر الآخرين، وتقديرها، ومراعاتها، والإحساس أن الآخرين بشر مثلنا، لهم من الحقوق مثل ما لنا.

وهكذا نستطيع أن نبيّن لأولادنا علّة كراهيتنا لتصرّف من التصرفات، ولسنا في حاجة أبداً إلى أن نقول (هذا عيب) و (ذاك عيب). فمع الإسلام لا يحتاج المجتمع إلى شيء آخر ينظم حياة أفراده، وعلاقاتهم، إلا ما يلزم من قوانين حكومية تنظم ما تركه الإسلام لنا من شؤون ننظمها حسب العصر وتطوره، فقوانين المرور، أو قوانين المهن، أو غير ذلك هي مما تركه الإسلام دون تشريع حتى لا يقيدنا بتشريع يصلح لزمان ولا يصلح لغيره، إنما شرّع لها مبادىء عامة، وترك الجزئيات لولي الأمر ينظمها باجتهاده.

أما التقاليد فضررها أكبر من نفعها، وهي آصار، وأغلال، وأحمال، وأوزار، نحن في غنىً عن حملها، طالما أنها لا تأتينا بحسنة، ولا تمحو عنا سيئة.

لقد اختلط الأمر على الكثيرين منا، بحيث لم يميزوا بين التقاليد والدين، وبين العيب والحرام، وظنوا أنهما شيء واحد أبداً.

فعلينا أن نختار أحسنهما وهو دين الله، فنتوجّه إلى الله مخلصين له الدين، موحدين له حقّ التوحيد، بحيث لا نراقب في أفعالنا غيره، سواء سخط الناس أم رضوا.

وقد روى الترمذي عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وَكَلَهُ الله إلى الناس».

أما التزام القوانين التي يفرضها ولي الأمر، ولا يأمر فيها بمعصية، هي حرام بيّن لا يختلف الناس في حرمته، فإن طاعتها من طاعة الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء:59].

وإنني كثيراً ما تفكرت في الفائدة التي كان النبي ﷺ يفيدها من اعتزاله الناس في مكان مرتفع في غار حراء قبل بعثته، والنبي ﷺ لم يكن فيلسوفاً يخلو بنفسه مع كتبه وأفكاره، يصوغها، ويراجعها، إذاً كان يكفيه اعتزال الناس في دار هادئة في مكة، ولم تأت عزلته بفكرة جديدة، إنما هو الوحي جاءه ذات مرة على غير انتظار.

ولعل الله سبحانه وتعالى ألهمه أن يتحنث في الغار وحده قبل الوحي، كي يخفف من ضغط المجتمع على نفسه، حيث يمضي الوقت الطويل وحيداً، بينما يقبع المجتمع كله هنالك.. تحت.. بعيداً.. حيث يبدو كل شيء صغيراً.

يقول أحد علماء الاجتماع معبراً عن مدى ضغط المجتمع، (إن الناس يجثمون على صدورنا)، وما كان ضغط المجتمع على الفرد قوياً مثلما كان في المجتمع الجاهلي العربي، حيث ولد النبي ﷺ وعاش.

لقد كان العيب والعار ديناً يدين به الناس صراحة، ويعيشون يراقب الواحد منهم الناس في أفعاله وأقواله طيلة حياته، ومحمد ﷺ الذي أدّبه ربه فأحسن تأديبه، بشر، ولربما احتاج إلى فترة بعيداً عن الناس كي يستشعر فرديته، واستقلاله عن المجتمع بشكل واضح، وليألف ذلك الشعور الذي سيكون ضرورياً جداً له حين يؤمر بتوحيد الله، ثم حين يؤمر بتبليغ الدعوة إلى الناس، إذ يومها سيسير عكس التيار، متمرداً على كل قيم الجاهلية وتقاليدها، إلا ما

يقره الله منها من مكارم الأخلاق، وما أصعب السير عكس التيار، على من نشأ على الخوف من كلام الناس وتعييبهم، وتعييرهم!

لقد استمر أثرٌ طفيف من الخشية من كلام الناس في نفس النبي ﷺ، ظهر في حادثة شهيرة بعد بعثته بسنين طويلة، وبعدما هاجر إلى المدينة، وصارت للإسلام دولة هو رئيسها.

وخلاصة تلك الحادثة أن النبي ﷺ كان قد تبنى زيداً بن حارثة، وكان عبداً مملوكاً عنده، ولما التقى بأبيه، فضّل زيد النبي ﷺ على أهله، فتبّناه النبي ﷺ وصار يدعى زيداً بن محمد، وكان زيد حِبَّ رسول الله ﷺ، أي: حبيبه، وذات يوم خطب له زينب بنت جحش، وكانت ذات حسب ومكانة، فترفعت عن زيد، فأمرها النبي ﷺ أن تتزوجه فأطاعت، وتزوجها زيد، ومرت الأيام، ولعل زواجهما دام سنة كاملة، وأوحى الله إلى النبي ﷺ أن زيداً سوف يطلِّق زينب، وأن الله سوف يزوّجه زينب.

وجاءه زيد يشتكي من زينب، فنصحه الرسول أن يمسك عليه زوجه، فكانت منه نصيحة لحِبِّه، ولكن الدافع إلى تلك النصيحة ربما كان الخشية من أن يطلقها زيد، فتحين ساعة زواجه ﷺ منها، فيقول الناس: محمد تزوج زوجة ابنه! وكان العرب لا يفرّقون بين الابن الحقيقي والابن المتبنى، أي: (الدَّعِيّ)، فكان في نصيحته لزيد ساعياً إلى تأجيل وقوع ما يخشاه.

ولكن الأمور ساءت بين زيد وزينب، وطلّقها زيد أخيراً، فنزلت كلمات الله تنبّه النبي ﷺ إلى أن لا يخشى الناس، وألا يخشى كلامهم، وألا يتحرج مما فرض الله له وأحلّ، وذكرت الجميع بأن زيداً لم يكن ابن محمد ﷺ، إنما كان دَعيّه، وكان يُدعى زيداً بن حارثة بعد أن أبطل الله التبني، وأمر أن يدعي كل مولود لأبيه.

وزوّج الله محمداً ﷺ زينب بكلمته، فدخل عليها دون عقد أو مهر.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب: 37-39].

لقد كان زواج النبي ﷺ من زينب زوجة متبناه سابقاً، مثالاً على الصراع المتأصل ما بين الإسلام والتقاليد، وكان مناسبة ليلقّن الله المؤمنين جميعهم درساً من دروس ذلك الصراع؛ ليرفع الحرج، ويحررهم من الخشية من الناس؛ ليكونوا أحراراً غير متحرجين في كل ما أحلّ الله لهم، فلا يخشون أحداً إلا الله، وكفى بالله حسيباً.

******



الفصل الخامس
العُرْف والشرع

العُرْف في اللغة العربية هو المعروف، وهو مفهوم أسيء فهمه كثيراً، حتى ظن البعض أن الله في كتابه الكريم أمرنا بما تعارف عليه الناس من عادات وتقاليد.. وذلك مستحيل على إطلاقه، لأن الله أوحى الإسلام إلى نبيه ﷺ ليُخْرِج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد؛ وبما أن اتباع من يحرم الحلال أو من يُحِل الحرام عبادة لهذا الذي يحل ويحرم - وهو ما أخذه الله على النصارى أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله-، وحتى لا يقع الفقهاء في مثل هذا المنزلق، ميزوا بين عُرْفٍ صالح، وعُرْفٍ فاسدٍ، حيث العرف الصالح هو ما وافق الدين، أو على الأقل لم يعارضه؛ بينما العرف الفاسد هو ما تعارض مع الحلال البيّن والحرام البيّن، وقالوا نتبع العرف الصالح ولا نتبع العرف الفاسد.

دين الله اكتمل، ونعمته، أي هدايته، تمت قبل وفاة النبي ﷺ، أما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]؟ والدين يعني ضمن ما يعنيه أحكام الحلال والحرام، أما النعمة التي كثيراً ما تأتي في القرآن وتعني الهداية، فهي تعني العقيدة، وبالتالي، لقد كَمُلَ الإسلام فقهاً وعقيدة قبل وفاته ﷺ.

نُحِلّ الحلال البيّن، ونحرم الحرام البيّن، وما سكت عنه ربنا فمتروك لحكمتنا، التي بالفطرة تستسيغ مكارم الأخلاق، وتهدف إلى تحقيق المصلحة لنا

ودفع المضرة عنا. أي نحن لسنا في حاجة إلى عوائد الناس وما صار يسمى عُرْفهم كي نستمد منها أي تحليل أو تحريم، بل نلجأ فيما سكت عنه ربنا إلى العلم والخبرة والمنطق السليم، لتحديد ما يجب علينا فعله أو تركه، لكن دون تحليل أو تحريم، إنما نفعل ما نفعه أكبر من ضُره، ونتجنب ما ضُره أكبر من نفعه، تماماً كما كانت الخمر عند نزول قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة: 219]، حيث لم تُحرَّم الخمر في هذه الآية، بل كانت دعوة للمؤمنين، كي يُعْمِلوا عقولهم وحكمتهم في قضية الخمر، حتى لو كانت في تلك المرحلة ماتزال مباحةً.

أرسلت الرسل لتعلم الناس الكتاب والحكمة.. الكتاب: أي (ما كتب الله على الناس من أحكام وعقائد ما كانوا ليصلوا إليها وحدهم دون الوحي)، والحكمة: أي (كل ما كان بإمكانهم من خلال العلم والخبرة والمنطق السليم أن يصلوا إليه وحدهم)، لكن ما كان ذلك ليتحقق إلا بعد الوقوع في أخطاء كثيرة، وعنت شديد، قبل أن يكتشفوا ذلك الأمر بأنفسهم. فالخمر مثلاً تجعل شاربها عِدائياً وأقلّ قدرةً على المودة والرحمة، وذلك على مستوى المشاعر، وقد تجعله على مستوى السلوك عدوانياً، يرتكب أفعال الاعتداء على الآخرين، من أي شكل أو طبيعة، وقد يعتدي على نفسه فيوردها المهالك، فأكثر من ينتحرون في المجتمعات الغربية، ينتحرون وهم تحت تأثير الكحول، الذي يعطيهم جرأة وتهوراً وعدائية، تجعل قتل أنفسهم أهون عليهم. كل هذا وصلت إليه البشرية بعد قرون وقرون من المعاناة بسبب الخمر، فقررت أن تحرّم الخمر على نفسها في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1919 ميلادي، لأنهم عرفوا أن ضُرّها أكبر من نفعها، لكن ربنا الرحمن حرم الخمر على البشرية في القرآن الكريم، موفراً عليها الألم والمعاناة التي ستتعرض لها، ريثما تكتشف بنفسها أضرار الخمر. هذا مثال يقرب الفكرة من الأفهام.

وقد حرّم الله الإبداع أو الابتداع في ما هو من الكتاب، فكانت كل بدعة ضلالة، وشجع على الإبداع أي الابتداع في ما هو من الحكمة، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن أداء صلاة التراويح في المسجد جماعة: (نِعْمَ البدعة هي).

العلماء ورثة الأنبياء، منهم من تخصص في علوم الدين، فورث مهمة الرسول فيما هو من الكتاب، ومنهم من تخصص في علوم الدنيا، من اقتصاد وصحة وسياسة وغير ذلك، فورث مهمة الرسول فيما هو من الحكمة.

قد نجد في عوائد الناس في بلد ما، ما هو حكيم ونافع ولا بأس في العمل به، لكن دون إدخاله في الدين، أي في الحلال والحرام. بهذا يكون العرف بالمعنى المعاصر مصدراً لأحكام الحكمة في حياتنا، لا مصدراً لأحكام الدين.

إن "العرف" الذي أمر به ربنا هو "المعروف" ذاته، لا بمعنى ما تعارف عليه الناس من قواعد للسلوك، بل هو المعروف الذي تعرفه الفِطَر السوية وترتاح إليه، ويشمل مكارم الأخلاق، وكل عمل صالح أو خَيّرٍ، والتوسط والاعتدال في الأمر، فلا إفراط ولا تفريط، بينما "المُنْكَر" في القرآن فهو "النُّكْر"، - مثلما إن المعروف هو العُرْف -، وهو كل قبيح من الأفعال تنكره الفطرة السوية وتستغربه وتنفر منه.

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: "لا تَحْقِرَن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"، ويقول الشاعر مؤكداً المعنى الأصلي لكلمة عُرْف:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العُرْف بين الله والناس

لم يكن العرب في عصر النبي ﷺ وصحابته الكرام يفهمون أو يعبرون بكلمة "عُرْف" أو "معروف" عن عادات الناس وتقاليدهم وعن ما توافقوا عليه واعتبروه صواباً أو عيباً وعاراً ، إذ لم تكن هذه الكلمة تعني ذلك على الإطلاق، وهذا ما يؤكده خُلُوّ الحديث الشريف، بل حتى خُلوّ القرآن الكريم، من أية إشارة

للعُرْف أو المعروف يوحي سياقها أن المقصود هي عادات الناس وتقاليدهم، ثم خُلُوّ معاجم اللغة العربية القديمة كلها، من أي تفسير لكلمة عُرْف أو معروف على أنها العوائد والتقاليد، بينما نجد ذلك في المعاجم المعاصرة فقط، نجد فيها أن العرف هو ما اعتاده الناس وتوافقوا عليه، فلسان العرب الذي خصص لجذر (ع ر ف) أكثر من ثلاثة آلاف كلمة، يخلو تماماً من أية إشارة إلى أن من معاني كلمة عُرْف أو معروف، ما اعتاده الناس وتوافقوا عليه..كما بالمقابل لا نجد في المعاجم القديمة أية إشارة إلى أن "العادة" تعني العُرْف أو المعروف.

لقد تطور معنى كلمة "عُرْف" عند أجيال أتت بعد الصحابة، لا ندري عددها، وصارت كلمة عرف ومرادفتها كلمة معروف، تعنيان بين ما تعنيانه: ما تعارف عليه الناس، أي ما توافقوا عليه واعتادوه؛ ونحن في عصرنا نجد صعوبة في الكلام على التقاليد في مجتمع ما، أو في مهنة ما، دون أن نستعمل كلمة عُرْف. تطور اللغات شيء طبيعي، لكن القرآن الكريم، حمى اللغة العربية، من أن يكون تطورها طمساً لماضيها، بحيث لا تفهم الأجيال المعاصرة كلام الأجيال التي سبقتهم بقرون عديدة كما هو حال لغات كثيرة حية.

ونكرر إن "العرف" الذي أمرنا الله تعالى أن نأمر به هو "المعروف". قال ابن كثير - رحمه الله - عند تفسير الآية﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (العُرف: المعروف، وقد أمر الله نبيه ﷺ، أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات)، إذن لم يأمرهم الله بالعرف الذي نتحدث عنه في هذا العصر، إنما أمر نبيه ﷺ أن يأمر الناس بالمعروف، واستخدم كلمة العرف بدلاً عنها لأنها مرادفة لها.

وقال القرطبي في تفسيره للآية نفسها: (قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ أي: بالمعروف).

فكل حرام بيّن منكر، وكل حلال بيّن معروف، والعرف مرادف للمعروف. أما العرف بمعنى العادات والتقاليد، وما تعارف عليه الناس فيما بينهم، فإنه

مصطلح نشأ بعد النبي ﷺ، والقرآن يُفهم حسب اللغة العربية التي كانت أثناء نزوله، أما ما جَدَّ من معانٍ واصطلاحات، فمن الخطأ تفسيرِ القرآن بمقتضى دلالاتها ومعانيها.

وقد يقال إن الفقهاء المسلمين أعطوا العُرف مكانة عالية في التشريع الإسلامي، والبيت المشهور بهذا الخصوص الذي أورده ابن عابدين في رسالة (رفع الانتقاد) يقول:

والعُرْفُ في الشـــــرع له اعتبار لـذا عـلـيـه الأمـرُ قـد يُـدار

صحيح أن للعرف اعتباراً في الشرع، لكن على أنه مفيد في فهم النصوص، وفي فض النزاعات، وفي القضاء بين المتنازعين، وفي تحديد بعض ما لم يحدده الشرع، كمقدار نفقة المطلقة الحامل، وعدد أيام الحيض، وكذلك عند الفتوى للناس.

وأما أن يكون العرف مصدراً للقيم والأخلاق والأحكام، من تحليل، وتحريم، وتحسين، وتقبيح، فلم يقل به فقيه معتبر.. إذ التحليل والتحريم من حقوق رب العالمين، ولم يرد في الإسلام أبداً أن المجتمع من خلال عاداته وتقاليده وأعرافه، له أن يُحل حلالاً، أو أن يُحرم حراماً. إنما للعرف السائد بين الناس في بلد من البلاد، أو بين أصحاب مهنة معينة، فائدة عظيمة في تحديد المقصود بالنصوص، كالعقود بين المتبايعين، أو المتآجرين، أو المتزوجين، وذلك عند اختلاف أصحاب هذه العقود، ولجوئهم إلى القضاء ليحكم بينهم، عندها يُحَكَّم العرف في هذه العقود، فيفهم الغامض فيها بحسب العرف المتعارف عليه في ذلك المجتمع؛ لذا كان مما قاله الفقهاء:

1. (العادة في عُرف الشرع: كالشرط).
2. (التوابع التي لا تُشْتَرط عند العقد يعتبر العرف فيها، وبه يفصل عند المنازعة).
3. (إنّ الحكم والفتيا: يعتمد فيهما على العرف ويختلفان باختلافه).

4. (التعيين بالعرف كالتعيين بالنص).
5. (اعتبار الوسع - أي: في النفقة - مبني على العادة).
6. (العرف: شاهد لمدعيه).
7. (كل ما لم يُحَد شرعاً: يُحال على العرف).

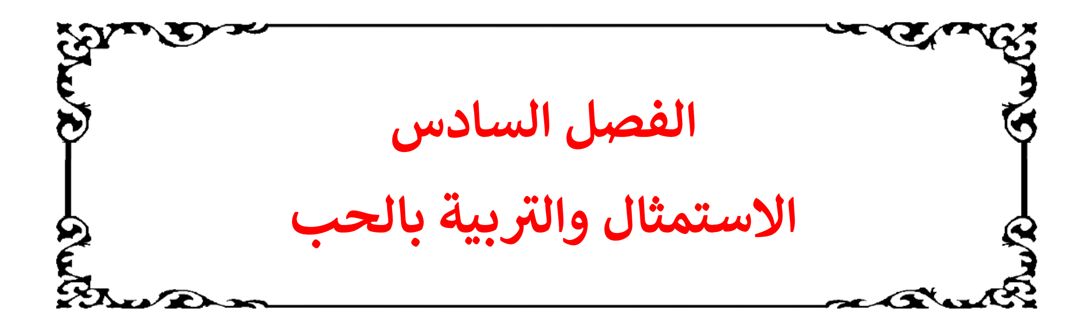
إلى غير ذلك من أقوال تؤكد أهمية المتعارف عليه بين الناس عند الفتيا، وعند فض النزاعات؛ إذ يستعان بالعرف لفهم مدلول عبارة أو كلمة في عقد بين متعاقدين اختلف على مدلولها، كأن يختلف المتعاقدان على المقصود بالجنيه في العقد، هل هو الجنيه المصري، أم الجنيه الاسترليني.... وعندما لا يكون نوع الجنيه مذكوراً في العقد، يلجأ القاضي إلى العُرف كي يفصل في القضية، وليحدد المقصود بالجنيه الذي ذكر في العقد دون تحديد نوعه. وكذلك عندما يُسْتفتى عالم، في يمين حلفه رجل، أو عبارة مبهمة، هل هي طلاق أم لا.... إلى غير ذلك، حيث يفتي العالم، مستعيناً بعُرف البلد.

وقد أورد أبو عجيلة في كتابه: (العرف) قول البهوتي: (ولا يجوز أن يفتي فيما يتعلق باللفظ كالطلاق، والعتاق، والأيمان، والأقارير، بما اعتاده هو من فهم تلك الألفاظ، دون أن يعرف عُرْف أهلها والمتكلمين بها، بل يحملها على ما اعتادوه وعرفوه، وإن كان الذي اعتادوه مخالفاً لحقائقها اللغوية).

وخلاصة القول إن الاستدلال على حجية العرف بالمعنى المستجد، الذي يقصد به ما اعتاده الناس، أي عاداتهم، الاستدلال على هذه الحُجيّة بالآية الكريمة ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ ﴾ استدلال خاطىء، لأن العرف في القرآن والحديث هو المعروف، أي مكارم الأخلاق، والأعمال الخيّرة، وليس العرف الذي نقصد به عوائد الناس وما توافقوا عليه، لأن هذا المعنى لكلمة عرف، استجد بعد نزول القرآن، ولا يصح الاعتقاد أن الخالق كان وقتها يقصده؛ قال تعالى في الآية من سورة إبراهيم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ ﴾. القرآن نزل على محمد ﷺ ليبلغه لقومه بلغتهم، بل نزل بلهجات أخرى غير لهجة قريش التي كُتب بها القرآن،

وذلك حتى يفهمه الذين نزل عليهم، ولا يمكنهم أن يفهموا في وقت نزوله، أنه يقصد بكلمة "عرف" ومرادفتها "معروف" عادات الناس وما توافقوا عليه من سلوك، وهو معنىً نشأ بعدهم.

******



الفصل السادس
الاستمثال والتربية بالحب

❖ الاستمثال:

يولد الواحد منا ويأتي إلى هذا العالم لا يعلم شيئاً، وبالتدريج يشتد عوده، وتقوى حواسه، وينمو إدراكه، فيبدأ بتكوين فكرة عما حوله.

ويمر الطفل في سنواته الأولى بمرحلة يكون فيها ضعيفاً ومعتمداً على والديه اعتماداً كبيراً، فمنهما الغذاء إذا جاع، والماء إذا عطش، والدفء إذا برد، والأمن إذا خاف، والمعونة إذا عثر، منهما كل شيء، فهما إذاً قادران على كل شيء.

هكذا تبدو الأم والأب في نظر الطفل الصغير، قادرين على كل شيء... إنهما أكبر منه، وعليه أن ينظر إلى أعلى حتى يراهما... هما قويان يحملانه بسهولة فيرى العالم وهو على يديهما من منظور جديد... يرى من حوله أشياء غامضة مجهولة كثيرة، فيسأل والديه فيجيبانه.. أمي وأبي إذاً يعرفان كل شيء.. أليسا يقدمان لي كل ما أحتاج إليه؟

أليسا يجيبان كل أسئلتي؟..

فتقول البنت في نفسها: ما أجمل أن أكون مثل أمي!

ويقول الصبي في نفسه: ما أجمل أن أكون مثل أبي!

وهكذا تتكون في ذهن الطفل صورة للرجل الأمثل هي صورة أبيه، وصورة للمرأة المثلى هي صورة أمه.. وتتولد الرغبة في أعماق نفس الصبي لأن يكبر حتى

يكون مثل أبيه.. مثله في كل شيء.. وتتولد الرغبة في أعماق نفس البنت لتكون مثل أمها.. مثلها في كل شيء. عند ذلك يقولون في علم النفس: إن عملية نفسية اسمها الاستمثال، قد تمت في البنت، وفي الصبي.

البنت استمثلت أمها.

والصبي استمثل أباه.

أي: اتخذ كل منهما والده الذي من جنسه مثالاً له، فتراه مدفوعاً بشعوره ولا شعوره إلى أن يصوغ نفسه على مثاله ومنواله، ويبدأ ذلك في الطفولة برغبة البنت في تقليد أمها في كل شيء، في لبس ملابس أمها الكبيرة، أو المشاركة في عمل أمها في المطبخ، أو رعاية دميتها كما ترعى أمها أخاها الصغير، أو حتى استعمال أدوات الزينة كما تستعملها أمها .

كما يبدأ الأمر في الطفولة أيضاً برغبة الصبي في تقليد أبيه في كل شيء، في ارتداء ملابسه، أو قيادة سيارته، أو في محاكاة مهنته إن كان قد اطلع عليها، أو في تدخين سيجارة، إن كان أبوه مدخناً! أو وضع الصابون على وجهه مثلما يفعل أبوه، عندما يحلق لحيته إن لم يكن ملتحياً.

وتتقدم السنون بالطفل ويكتشف أن والديه يعرفان الكثير لكنهما لا يعرفان كل شيء، ويكتشف أن والديه قادران على الكثير، لكنهما غير قادرين على كل شيء... ويبدأ الطفل في إدراك الواقع أكثر.

ويذهب الطفل إلى المدرسة، فيحتك ببالغين آخرين، من معلمين ومعلمات، ويبدأ بملاحظة صفات الكبار الآخرين، ومزاياهم، وملاحظة الفوارق بين المعلمة وأمه، وبين المعلم وأبيه.. عندها تهتز الصورة التي كونها الطفل عن (المرأة المثلى) التي كانت نسخة عن أمه، وتهتز الصورة التي كونها (عن الرجل الأمثل) التي كانت نسخة عن أبيه.

ونحن مفطورون على أن نحب لأنفسنا أحسن شيء، وأفضل شيء، وأمثل شيء.. فإذا ما لاحظ الطفل - صبياً كان أو بنتاً - صفة في معلمته ليست في أمه،

وبدت هذه الصفة رائعة في نظره، فإنه دون شعور منه، يضيفها إلى صورة أمه التي في ذهنه لتصبح صورة (المرأة المثلى) في ذهنه، صورة أمه مضافاً إليها تلك الصفة التي أخذها من معلمته، أي: تبدأ تلك الصورة بالتعديل...

وهكذا كلما التقى الطفل بامرأة غير أمه، فيها مزية أو صفة أعجبته، هي ليست في أمه، عدّل في صورة (المرأة المثلى) التي في ذهنه بمقتضى ذلك .

ويحدث الشيء ذاته عندما يلتقي الطفل برجل غير أبيه (معلمه مثلاً) ويرى فيه صفات تعجبه لا يراها في أبيه فيحور، ويعدل في صورة (الرجل الأمثل) في ذهنه، فيضيف إلى صورة أبيه التي كانت النموذج قبل ذلك.

والبنت والصبي، كلاهما يكون صورة في ذهنه للمرأة المثلى، وللرجل الأمثل، المرأة المثلى بالنسبة للبنت هي ما تشتهي نفسها أن تكون عندما تكبر، والرجل الأمثل بالنسبة لها، هو الرجل الذي ستحلم بالزواج منه عندما تكبر.

وبالنسبة للصبي، فإن الرجل الأمثل هو ما يريد أن يكونه عندما يكبر، أما المرأة المثلى بالنسبة له، فهي التي سيحلم بالزواج منها، يوم يحلم بالزواج.

ومن جهة أخرى قد تحتوي صورة المرأة المثالية في ذهن الطفل على صفات رآها في رجل وقد تحتوي صورة الرجل المثالي في ذهنه على صفات رآها في امرأة فقد تستمثل البنت أباها في صفة أعجبتها فيه لم تجدها واضحة في أمها، فتدمج البنت هذه الصفة بصورة المرأة المثالية، التي تود أن تصبح مثلها، ومثال ذلك أن تعجب البنت بصفات أبيها القيادية في البيت، ودوره كآمر ناه، بالمقارنة مع أمها التي ربما كانت شخصيتها ضعيفة، خضوعة، معتمدة على الآخرين.

وكذلك الحال بالنسبة للصبي، الذي قد يُعجب بصفة هي في أمه أوضح، فيدمج هذه الصفة في تصوره للرجل الأمثل، الذي يحلم أن يكون مثله يوماً ما، ومثال ذلك أن يعجبه من أمه أسلوبها الرحيم، ورعايتها له، بالمقارنة مع أبيه، الذي قد يكون قاسياً معه، لا يظهر له الحب والحنان.

لكن على ما يبدو، يكون اقتباس البنت لصفة من صفات أبيها، أو أي رجل آخر، وإضافتها إلى تصورها للمرأة المثلى، أصعب بكثير من اقتباس الصفات من أمها، أو من النساء الأخريات.. وكذلك يكون اقتباس الصبي لصفة من أمه أو من امرأة أخرى، أصعب بكثير من اقتباسه الصفات من أبيه أو من رجال آخرين.

عوامل تقوية الاستمثال وتيسيره

هنالك أربعة عوامل هامة:

وهذا يقودنا إلى الكلام على الأمور التي تقوي عملية استمثال طفل لأمه أو لأبيه أو لغيرهما من الكبار، فمعرفة ما يقوي هذا الاستمثال وما يضعفه هام لتربية أولادنا على الإسلام، إذ لو حرصنا على التخلق بأخلاق الإسلام بكل شؤوننا مع أطفالنا، وفي الوقت نفسه استطعنا أن نجعل استمثالهم لنا على أشده، فإن أخلاق الإسلام ستصير جزءاً من تصورهم للمرأة المثالية والرجل المثالي، الذي تتوق أنفسهم إلى التشبه به وتحقيقه في أنفسهم، كل بحسب جنسه.

وبالمقابل، فإن كانت هنالك عوامل تضعف استمثال أولادنا لنا، وبالتالي تجعلهم يستمثلون آخرين غيرنا، ربما كانوا بعيدين عن أخلاق الإسلام وهديه، فإن عدم انتباهنا لتلك العوامل، يهدد تربيتنا لأولادنا على الإسلام تهديداً كبيراً.

والاستمثال عملية نفسية طبيعية هامة في التربية، من خلالها يتربى الطفل بشكل تلقائي، مثلما يأكل، ويشرب، ويتنفس، وينمو، ويتعلم الكلام والمشي.

وهي أبعد أثراً في النفس من مجرد الاقتداء والتأسي، الذي هو عملية شعورية، تحتاج إلى الإرادة، والانتباه إلى ما يجب الاقتداء فيه، ومن يجب الاقتداء بهم، أي: هي عملية تحتاج إلى قدر من النضوج العقلي، ومن الفهم والاستيعاب.

أما الاستمثال، فهو عملية نفسية لا شعورية إلى حد كبير، يقوم بها عقل الصغير، قبل أن يكون قادراً على فهم أي شيء عن الاقتداء والتأسي، وعن القيم والأخلاق، بالشكل الذي يفهمها الكبار به.

وما يتم تعلمه لا شعورياً ينغرس في النفس، ويكون أثره قوياً فيها، وباقياً مدى الحياة، ما لم يتم تعلم لا شعوري معاكس له، وقوي مثله... لذا كان لا بد لنا من العمل، على تقوية استمثال أولادنا لنا، واستمثالهم لمن نرضى دينه وخلقه من الآخرين، وإلا فإن أولادنا، إن لم يستمثلونا ويستمثلوا من نرضى، استمثلوا غيرنا ممن لا نرضى .

والوعظ والإرشاد لا يقاوم الاستمثال المغروس في النفس في اللاشعور منها، وكلنا يرى كيف أن الوعظ والإرشاد يفعل القليل جداً في المراهقين، الذين استمثلوا في حين غفلة من أهلهم أبطال الرياضة، أو مشاهير المغنين، والممثلين، وعارضات الأزياء.. فترى المراهق يشعر بالرضى والسعادة، عندما يعيش مقلداً للاعب كرة مشهور، أو مغن ذائع الصيت، فيلبس مثله، ويقص شعره مثله، ويقلده في كل ما يعرفه عنه.

وكذلك المراهقة، التي تلبس وتتبرج مثل ممثلة شهيرة، فتحاول أن تصوغ نفسها، نسخة عن تلك الممثلة في كل شيء.

ويُكثر الأبوان من الوعظ والإرشاد، لكن الجدوى قليلة، لأن هوى الفتاة وهوى الفتى، صارا في اتجاه آخر، انزرع في نفس كل منهما وتأصل، منذ الطفولة.

وكما يستمثل الأطفال آبائهم وأمهاتهم والكبار الآخرين، فإنهم يستمثلون الأطفال الأكبر منهم بوضوح، أي بسنة أو أكثر، أو بصف مدرسي أو أكثر.. وهذا ينبهنا إلى الدور التربوي، الذي يقوم به الأخ أو الأخت الأكبر دون أن يشعرا.. وبالمقابل لا يستمثل الأطفال أطفالاً أصغر منهم بوضوح، فالاستمثال عند الطفل يتم باتجاه واحد من الصغير للكبير.

ما الذي يقوي الاستمثال ويسهل حدوثه؟

العامل الأول: هو وجود علاقة تمتاز بالدفء العاطفي الأكبر والرعاية والحنان الأكبر أو قل بالمصطلح الإسلامي: تمتاز بالمودة والرحمة الأكبر ما بين الطفل ووالديه.. فالذي يسيء معاملة أولاده، أو لا يشعرهم بحبه لهم، ورحمته إياهم، يجعل هنالك عقبة نفسية تعيق استمثالهم له.

والعامل الثاني، المقوي والميسر للاستمثال، هو شعور الأولاد بالتوقير والاحترام، للأب والأم موضوع الاستمثال.. فلو كانت الأم مسيطرة مثلاً، وكان الأب خضوعاً غير موقر ولا محترم في بيته، فإن استمثال أبنائه له سيكون عسيراً وضعيفاً، وكذلك لو كانت الأم موضع سخرية وانتقاد متكررين من الأب بحضور الأولاد، فإن استمثال بناتها لها سيكون عسيراً وضعيفاً أيضاً.. لذا يجب الحذر في حالات الخلاف والشقاق بين الزوجين، ألا يتورط الأب في تشويه صورة زوجته أمام أولاده، وبخاصة البنات، وألا تتورط الأم في تشويه صورة زوجها أمام أولادها وبخاصة الصبيان، لأن مصلحة الأولاد أهم من مشاعر الغيظ والغضب التي يشعر بها أحد الزوجين تجاه الآخر.

أما العامل الثالث المُيسِّر للاستمثال، فهو وجود شبه ما بين الولد والوالد، وأول درجات الشبه هو التشابه في الجنس، لذا كانت البنت تستمثل أمها والنساء الأخريات، أكثر بكثير من استمثالها أبيها والرجال الآخرين، وكان الصبي يستمثل أباه والرجال الآخرين، أكثر بكثير من استمثاله أمه والنساء الأخريات.

ورابع هذه العوامل المقوية للاستمثال والميسرة لحدوثه هو طول الاحتكاك والعشرة، فالولد لا يستمثل أباً غائباً أو أُمّاً غائبة إلا قليلاً مما يسمعه عنه أو عنها.. إنه بالاحتكاك اليومي تتم المعرفة الحقيقية التي لا بد منها للاستمثال، إذ لا يمكن استمثال المجهول، كما أنه لا بد من تكرار المواقف والانطباعات، التي تتركها في نفوس الأولاد، كي يترسخ الاستمثال للصفات الكامنة ورائها، فالاستمثال في حقيقته، نوع من التعلم اللاشعوري، والتكرار هام في التعلم، سواء كان هذا التعلم شعورياً أو لا شعورياً.

وهذه العوامل الأربعة: الدفء والرعاية، والتوقير والاحترام، والتشابه، والاحتكاك والعشرة، هي عوامل لتوليد الحب في النفوس.

وللحب علاقة وطيدة بالاستمثال هذه مما يجعل الحب وسيلة هامة جداً للتربية عموماً، وللتربية على الإسلام خاصة.

ولفهم ذلك، لا بد لنا من تناول الموضوع من زاوية أخرى، ومنظور آخر، ولا بد لذلك أيضاً، من الحديث قليلاً عن الحب، وعوامل نشوئه في النفس، وكذلك عما يولده هذا الحب في النفس من آثار، تساهم في أن يتشرب أولادنا أخلاقنا، ومشاعرنا، واتجاهاتنا، وسلوكاتنا، التي إن كانت كلها على هدى الإسلام، نشأ أولادنا عليها، وصارت جزءاً من شخصية كل منهم، مغروسة في أعماق نفسه.

وفي بداية كلامنا على الحب، لا بد من أن نقرر أنه **لا حُبَّ بلا إعجاب.**

فالإعجاب بالنسبة للحب، بمثابة الأساس للبناء، لا بد منه كي يقوم البناء، ويصمد بعد قيامه أمام الهزات والعواصف. ولكن ما الإعجاب؟

❖ الإعجاب:

الإعجاب شعور نجده في نفوسنا، عندما نلتقي بعض الناس، فنشعر أننا أعجبنا بهم، واسترحنا لوجودهم، وانجذبنا إليهم، ونحن في غالب الأحيان لا نعرف سبب إعجابنا بهم، وقلما يحاول أحدنا البحث في نفسه عن أسباب إعجابه هذا.

إن الإعجاب هو الشعور الذي ينشأ عن إدراك النفس لوجود قدر كبير من التشابه بيننا وبين من نعجب بهم.. وإدراك التشابه هذا يتم بعملية عقلية لا شعورية، نجد نتيجتها على شكل شعور بالإعجاب والاستلطاف في نفوسنا تجاه الذي أدركت النفس تشابهاً معه.. واللاشعور (أو قل: القلب) الذي منه تنبع العواطف، ماهر جداً في استكشاف وجوه التشابه أو الاختلاف بيننا وبين

الذين نلقاهم. ونتائج تحليلاته التي نشعر بها على هيئة مشاعر وعواطف، نتائج دقيقة وصحيحة في أغلب الأحيان.

لكن السؤال هنا هو: كيف يكون الإعجاب ثمرة لإدراك التشابه، والإعجاب يحصل بين المختلفين، كأن يُعجبَ رجل بامرأة، أو تعجب امرأة برجل، أو يُعجب شاب بعجوز، أو يعجب عجوز بطفل....؟

هنا يأتي تصوّر كلّ منا للرجل الأمثل والمرأة المثلى، وقل مثل ذلك عن تصوّرنا للطفل الأمثل، والعجوز الأمثل، وهكذا... إننا لا نعجب بمن يشبهنا كما نحن، إنما نُعجب بمن يشبهنا كما نتمنى أن نكون. وصورة الرجل الأمثل، والمرأة المثلى التي لدى كلٍّ منا يدعوها علماء النفس: "النفس المثلى" (Ideal self) مقارنة مع النفس كما ندركها في الحقيقة والواقع (Real self)؛ فالنفس المثلى لدى كل منا، هي صورة عقلية كوّنّاها على مدى السنين، وتبقى قابلة لبعض التعديل دائماً؛ أمّا النفس الحقيقية، فهي نفسنا كما نراها، وندركها، ونتصورها، من حيث الصفات المحببة لنا، أو العيوب التي نكرهها فيها.

وقد نرى أنفسنا رؤية صادقة لما هي عليه حقيقة، وقد تكون رؤيتنا لأنفسنا مشوهة، إما بغرور يرى في أنفسنا ما ليس فيها من الميزات، أو بعقدة نقص، تجعلنا نرى في أنفسنا ما ليس فيها من عيوب، أو تجعلنا لا نرى ما فيها من ميزات.

❖ النفس المثلى:

نفسي المثلى هي نفسي كما أتمناها أن تكون.

ولكلّ منا نفس مثلى، قد تكون قريبة الشبه بنفسه الحقيقية كما تبدو له، وذلك إن كان شخصاً راضياً عن نفسه من كل النواحي، ولا يرى فيها عيوباً ونقائص يتمنى لو أنها كانت خالصة منها.

وقد يكون الاختلاف بين النفس المثلى والنفس الحقيقية (أي: النفس كما تبدو لصاحبها) كبيراً، إن كان هنالك الكثير من الصفات لا يرضاها في نفسه، ويتمنى أنها كانت على نحو آخر.

فالرجل يعجب بالرجل الذي يرى فيه نفسه المثلى، والمرأة تعجب بالمرأة التي ترى فيها نفسها المثلى؛ أما عندما يعجب رجل بامرأة، فإنه يعجب بالمرأة التي يرى فيها نفسه المثلى فيما لو خلقه الله امرأة، فالعقل الباطن يقول: لو خلقني الله امرأة لأحببت أن أكون مثل هذه المرأة، فتعجبه هذه المرأة، وكذلك المرأة التي تعجب برجل، فإنها تعجب به لأنها ترى فيه نفسها المثلى فيما لو خلقها الله رجلاً، وعقلها الباطن يقول: لو خلقني الله رجلاً، لأحببت أن أكون مثل هذا الرجل (الذي أعجبت به).

وبالطريقة نفسها يعجب البالغ الكهل بطفل أكثر من طفل؛ لأن عقله الباطن يقول: لو كنت طفلاً لأحببت أن أكون مثل هذا الطفل، وكذلك الطفل الذي ينظر إلى الكبار فيقول عقله الباطن: أحب أن أكون مثل أبي عندما أكبر، وأحب أن أكون مثل أمي عندما أكبر.

وكما قلنا: فالنفس المثلى لدى كل منا، هي صورة عقلية قابلة للتعديل طول العمر؛ لكن لما كانت هذه الصورة العقلية تتكون بشكل لا شعوري، والناس ليسوا محللين نفسيين يراقبون أنفسهم، ويحاولون الكشف عما جرى في لا شعورهم، كانت الصورة التي تتشكل خلال الطفولة عميقة الأثر في تكوين الشخصية، واتخاذ الهوية، الذي يتم أكبر قدر منه عادة في طور المراهقة.

ففي المراهقة سعي واجتهاد من المراهق، ليحقق صورة النفس المثلى التي تكونت لديه، بحيث تصبح حقيقة وواقعاً، ومن ثم، ليصوغ نفسه وحياته على منوالها.

وهنا يبرز دور الاستمثال في التربية، ولهذا كان حرصنا على أن يستمثلنا أولادنا، وعلى أن يستمثلوا من نرضى أخلاقهم ودينهم، دون أن يستمثلوا الشخصيات البعيدة عن هدى الله.

وأعود للحديث عن الحب.

❖ الامتنان:

لقد قلنا: إنه لا حب بلا إعجاب، وإن الإعجاب هو إدراك التشابه ما بيننا (بين أنفسنا المثلى) وبين من نعجب به، والإعجاب يشكل دافعاً نفسياً قوياً للحب، لكنه لا يكفي بمفرده، ولابد معه من دافع ثانٍ، يتحقق باجتماعهما في النفس، أهم شرطين لقيام الحب فيها لشخص آخر، هو الشكر والعرفان والامتنان.

علماء النفس يقولون: إن الذي يدفع الإنسان إلى أن يحب إنساناً آخراً هو إشباع المحبوب لحاجات نفسية وغير نفسية هامة للمحب، لكن هذا الإشباع والإرضاء بحد ذاته لن يولد الحب في نفس من يتلقاه، ما لم يصادف إنساناً شكوراً، أما الجَحود، فإنه يكفر الإحسان من أية جهة جاء، بل ينتفع به دون الإحساس بالشكر لمن قدمه له وأحسن إليه؛ فالجاحد ليس كالشاكر الذي يجازي الإحسان بالإحسان، أما أطفالنا فهم شكورون، لأنهم ما زالوا على الفطرة، ولنا أن نتوقع منهم الحب جزاء إحساننا إليهم.

وقد روى مالك في الموطأ عن عطاء حديثاً مشهوراً جاء فيه: قال رسول الله ﷺ: «تصافحوا يذهب الغلُّ، وتهادوا تحابّوا، وتذهب الشَّحناءُ» [قال ابن عبد البر: هذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها]، هذا الحديث يُنبِّهنا إلى دور العطاء، وإشباع حاجات الآخرين في توليد الحب في نفوسهم إن كانوا شاكرين بالطبع.

وقد قال النبي ﷺ أيضاً فيما رواه الترمذي: «أحبو الله لما يغذوكم من نِعَمِه»، وواضح لنا في هذا الحديث الشريف كيف يكون الشكر والعرفان دافعاً للحب، وأساساً له.

وقد أصاب الشاعر الذي قال:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... لطالما استعبد الإنسان إحسان

وقد حثنا ديننا على الإكثار من التسبيح والحمد لله تعالى، إذ في التسبيح تعبير مُتجدِّد عن إعجابنا بخالقنا الذي له الأسماء الحسنى وله صفات الكمال المطلق، والتسبيح من معانيه: التنزيه عن كل عيب ونقص، وإننا كلما سبَّحنا خالقنا ونحن مدركون لمعنى تسبيحنا تجدد إعجابنا به وبصفاته وكمالاته، وملأ هذا الإعجاب قلوبنا، وبذلك يترسخ الأساس الأول الذي يقوم عليه حبنا له سبحانه وتعالى. وكذلك كلما حمدناه ذكَّرنا أنفسنا بنعمه علينا، فالحمد شكر، والشكر لا يكون إلا على نعمة وعطاء وإحسان، والحمد صبر ورضا على بلائه لنا، ومع الرضا لا يبقى في النفس ما يعيق الحب.

وبالتالي فإننا كلما حمدنا المولى وشكرناه - جل في علاه - أثرنا في قلوبنا الدافع والداعي إلى محبته، وحتى يكتمل إيماننا لا بد أن يكون خالقنا العظيم أحب إلينا من كل شيء في الوجود سواه.

وفي حياتنا الاجتماعية، عندما يكون شخص ما موضع إعجابنا، وفي الوقت نفسه مصدر خير لنا وإسعاد، ونحس بالشكر والعرفان والامتنان له، فإننا نحبه؛ ونحن نحبه عادة دون أن نحلل مشاعرنا، بل يبدو الأمرُ لنا تلقائياً وعفوياً.

ويمكننا تلخيص ما سبق عن الكيفية التي يتولد بها الحب في النفس الإنسانية بالمعادلة التالية:

إعجاب × امتنان = حب

فلو انعدم الإعجاب انعدم الحب، وبقي الشكر على الإحسان دون أن يبلغ درجة الحب.

ولو انعدم الشكر، وذلك إما لانعدام الإحسان، أو لوجود الجحود في النفس المتلقية للإحسان، فإنه في هذه الحالة أيضاً ينعدم الحب، ذلك أن ناتج ضرب أي رقم بصفر هو الصفر.

وعودة إلى الإعجاب، فإن النبي ﷺ بيَّن أهمية الإعجاب وكيف يتولد عن التشابه عندما قال: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها إئتلف، وما تناكر منها اختلف» [رواه البخاري في صحيحه]، وقد فسَّر علماء المسلمين قديما تعارف الأرواح هذا المذكور في الحديث الشريف فسروه بالمشاكلة، أي تشابه الأشكال، وهذا هو مصطلحهم لمفهوم التشابه.

❖ الحب يدفع إلى التشابه:

التشابه يساهم في نشوء الحب، فهل يؤدي الحب إلى التشابه بين الأحبة؟

روى أبو داوود في سننه وروى الترمذي في الجامع الصحيح أن النبي ﷺ قال: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل». [حسنه الألباني وصححه ابن باز].

والخُلّة أعلى مراتب الصداقة، لذلك كان نبينا ﷺ خليل الله وكان إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - خليل الله.

وهذا الحديث يحذرنا عندما يقول: «فلينظر أحدكم من يخالل» يحذرنا من أثر من نحب في أنفسنا، وأخلاقنا، وسلوكنا، ومشاعرنا، أي: في ديننا.

وهنا يكمن سر تربوي عظيم؛ فكما أن الحب يقوم على الإعجاب، أي: على التشابه فإنه - أي الحب - يولد المزيد من التشابه بين المتحابين.

فالحب يوجِد في النفس دافعاً إلى التشبه بالمحبوب، والتخلق بأخلاقه، والاتصاف بصفاته، وهذا الدافع يكون عادة لاشعورياً، يؤثر فينا ونحن لا نشعر.

ولعل تأثيره يتم من خلال اقتباسنا لصفات المحبوب، وجعلها جزءاً من نفوسنا المثلى (أي: من صورة نفوسنا كما نتمناها أن تكون) فيصير التخلق بأخلاق المحبوب هدفاً نفسياً لنا.

إنَّ ما سبق يمكننا من فهم الأثر الذي يولده حب المؤمن للرسول ﷺ، حباً يفوق حبه لنفسه، وأهله، وماله، وولده. فقد روى البخاري في صحيحه عن أنس - رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين».

وروى البخاري أيضاً في صحيحه عن - أنس رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

فالنبي ﷺ عندما طالب المؤمن أن يحبه أكثر من والده وولده والناس أجمعين، ما كان يريد منه أن يعظمه، أو أن يقدسه، فسيرته ﷺ كلها تشهد بعكس ذلك.

لقد كان - وهو النبي القائد والرئيس للدولة - يجلس بين أصحابه لا يتميز عنهم بشيء، حتى إن القادم الذي لا يعرفه إن أتى مجلسه لم يستطع أن يميز محمداً ﷺ من أصحابه فيقول: أيكم محمد؟.

وقد روى ابن ماجه في سننه عن أبي مسعود - رضي الله عنه - قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فكلمه فجعل ترعد فرائضه. فقال له: «هون عليك، فإني لستُ بملكٍ. إنما أنا ابنُ امرأةٍ تأكل القديد». [جاء في مجمع الزوائد: إن إسناد هذا الحديث صحيح، وإن رجاله ثقات].

إذاً عندما جعل النبي ﷺ حبّه، وحب الله حباً يفوق حب ما سواهما شرطاً لكمال الإيمان، فإنه كان يهدف إلى تربية المؤمنين تربية عن طريق الحب (تربية بالحب).

فحب النبي ﷺ يدفع النفوس إلى استمثاله، أي اتخاذه مثلاً ومثالاً، وتكون النفس المثلى لكل مؤمن منطبعاً فيها صفات الرسول الله ﷺ وأخلاقه وطباعه، حتى إنه لو قُدِّر للمؤمن أن يعيد الله خلقه كما يشاء هذا المؤمن، وبالشكل الذي يحب لقالت نفسه: أريد أن أكون مثل محمد ﷺ في كل شيء.

ولعل هذا ما جعل مادح النبي ﷺ يخاطبه قائلاً:

خُلقتَ مبرّأً من كلِّ عيبٍ   كأنك قد خُلِقْتَ كما تشاءُ

وحتى يؤتي حبّ المؤمن لرسول الله ﷺ ثماره التربوية، فإنه يجب أن يتم مع الإصرار على بشرية النبي ﷺ، وعلى أنه بشر مثلنا، ولا يزيد علينا إلا بأنه يُوحى إليه. قال تعالى في الآية الأخيرة من سورة الكهف [رقم 110]: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

وذلك لأن إسباغ أية صفات فوق بشرية على شخصية النبي ﷺ تضعف آلية الاستمثال؛ لأنه يكون عندها للشيطان ما يقنع به النفس؛ التي لا تريد أن تسمو فوق عيوبها مستمثلة في سموها المنشود شخصية النبي ﷺ وأخلاقه.

ولهذا لم يبعث الله في الناس رسلاً من الملائكة؛ لأن أثرهم أضعف في النفوس، حيث يقول الشيطان للإنسان: (وكيف تكون مثله وهو ملك معافى من الغرائز، والشهوات، والميول الفطرية؟).

هذا بالإضافة إلى ناحية هامة أخرى وهي: أن حُبَّ الإنسان لإنسان آخر- مع إدراكه لبشريته حباً مبرأ عن المصالح الدنيوية، هذا الحب لا يجتمع في النفس مع الكِبْر، فحبُّنا للنبي ﷺ مع إدراكنا لبشريته المماثلة تماماً لبشريتنا فيه الشفاء لقلوبنا من الكبر والعلو، أما إن أسبغنا عليه صفات فوق بشرية، فعندها يمكن للكبر والعلو أن يجتمعا مع حب النبي ﷺ في قلب واحد.

وهذا أمر على جانب عظيم من الأهمية، ذلك أن الله قد توعد على الكبر النار، وأخبر النبي ﷺ أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.

والسؤال الآن: هل هنالك ما نفعله لتعليم أولادنا حب الله وحب النبي ﷺ؟

نعم.. يمكننا فعل الكثير في هذا السبيل، يمكننا أن نحدثهم الكثير عن الله، وعن النبي ﷺ، بحيث يكون أولادنا على معرفة جيدة بالله وبالرسول، فالحب معرفة، وهذه المعرفة ضرورية لتوليد الإعجاب في نفوسهم، الإعجاب بالله تعالى وبصفاته، والإعجاب بالنبي ﷺ، وأخلاقه، وشخصيته؛ والإعجاب شرط لازم للحب.

ويمكننا تعريف أولادنا بنعم الله علينا، وكذلك بفضل النبي ﷺ علينا، إذ بذل من أجلنا الكثير، وإنه إذا اجتمع الإعجاب عند أولادنا بالنبي ﷺ وعرفوا ما قدمه لنا ولهم أحبوه.

روى الترمذي في سننه عن ابن عباس - رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي» [قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه].

ويمكننا أن نُبيِّن لأولادنا رحمة الله بالأطفال، وكيف يدخل الأطفال الجنة إن هم ماتوا في طفولتهم، وكذلك حب النبي ﷺ ورحمته بالأطفال الذين عاصروه.

كما يمكننا أن نُردِّد أمام أطفالنا أننا نحب الله ونحب الرسول ﷺ، ونشجعهم على أن يقولوا هم ذلك بدورهم، فإن الأطفال في السنوات الأولى من العمر لا يعرفون الكذب والاختلاف بين ما في نفوسهم وما يقولون، وإنهم عندما يكررون القول إنهم يحبون الله ويحبون الرسول ﷺ، فإن ذلك يثبت حبهما في نفوسهم، وعندما يرون أننا نحن الكبار نحب الله والرسول ﷺ فإن رغبتهم الفطرية بالتشبه بنا تبث في نفوسهم الحب لله وللرسول ﷺ.

ومن الخطأ أن نستغل ما يقع بهم من آلام لنقول لهم: إن الله أصابك بهذا الألم، أو بهذا الجرح، أو بهذا المرض، أو فقده للعبته، أو انكسارها...، فندَّعي أن الله أصابه بذلك، لأنه سبق له أن عصانا، أو ضايقنا في شيء، والطفل عندما يكون في حالة إحباط وغضب، وادعاؤنا أن الله أصابه بذلك ليعاقبه، يجعل الطفل يتوجه بغضبه إلى الله، ويعيق نشوء الحب في قلبه لله، ونكون بذلك قد أسأنا، ونحن نظن أننا نربي الطفل، ونخلصه من عاداته السيئة بهذه الطريقة.

والمفيد التركيز على ما ورد عن النبي ﷺ من مواقف مع سبطيه الحسن والحسين - رضي الله عنهما - وتحبيب أولا دنا بهما، وببقية أهل بيته ﷺ، لأن ذلك يرسخ بشريته ﷺ في نفوس أطفالنا.

كما إن الأطفال عادة يتخيلون أنفسهم مكان الأطفال الذين يسمعون قصصهم، ويتقمصون شخصيات أبطال القصص التي يطلعون عليها، وقصص أطفال أهل البيت ﷺ مفيدة حيث تساعد على توليد علاقة الحب بين أطفالنا ونبيهم صلى الله عليهم وسلم.

❖ الحب بيننا وبين أولادنا:

لا يمكن للحب أن يوجد دون احترام وتوقير، لا بمعنى التعظيم والتبجيل، وإنما بمعنى الشعور بإنسانية المحبوب، وكرامته كبشر مثلنا تماماً، ذكراً كان أو أنثى، صغيراً أو كبيراً.. فلا يمكن لمن يتعالى على شخص آخر أن يكون محباً له في الوقت نفسه.

فالكبر والتعالي لا يجتمعان مع الحب في نفس واحدة، وكذلك لا يجتمع حب شخص وازدراؤه في نفس واحدة ووقت واحد.

والواقع يقول: إنّ الكثيرين ينسون أنفسهم، فيتعاملون مع الأولاد بما في ذلك أولادهم بتعالٍ وتكبرٍ عليهم، ولا يستشعرون الاحترام لهم.

فضعف الطفولة وبراءتها يغريانهم في النظر إلى الأطفال هكذا.

ويزيد الطين بلة اعتقاد الكثيرين أن الأطفال لا يتأثرون مثلما يتأثر الكبار؛ أي أنهم ليسوا كالكبار في مشاعرهم وإحساسهم بكرامتهم.

إن العكس هو الصحيح، فالطفل يستشعر الكرامة كالكبير وتؤلمه الإهانة، والنّهر، وإظهار العداوة، كما تؤلم الكبير تماماً.

وأكثر ما يعاني الأولاد من قلة احترام آبائهم وأمهاتهم لهم عندما يبلغون طور المراهقة، فيصرّ الآباء والأمهات على النظر إليهم كما ينظرون عادة إلى الأطفال، أي: لا يحترمون آراءهم، وقد يوبخونهم، ويهينونهم في حضرة أناس آخرين.

وقد وجدنا أنه حتى الأطفال الصغار يجب علينا النظر إليهم نظرة احترام، وعلينا ألا نسفه آراءهم، وألا نسخر منهم، وألا نلقبهم الألقاب، وألا نهينهم، أو نعاقبهم، أمام الآخرين، فما بالنا بالمراهقين البالغين؟!

ومن مظاهر قلّة الاحترام للأطفال، أو المراهقين: ألا يسلم عليهم الكبار إذا مروا بهم، أو لا يسلم عليهم آباؤهم في الصباح، أو عندما يلتقون بهم بعد فراق قصير أو طويل.

ومن مظاهر قلة الاحترام أيضاً: تجاوزهم دون إذنهم عند تقديم طعام أو شراب، وهذا بعكس ما ورد عن النبي ﷺ.

روى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أنه قال: أُتي النبي ﷺ بقدح فشرب منه، وعن يمينه غلام أصغر القوم، والأشياخ عن يساره فقال: «ياغلامُ! أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ؟»، قال: ما كنت لأوثر بفضلي منك أحداً يا رسول الله ! فأعطاه إياه.

وفي رواية ثانية للبخاري أن النبي ﷺ قال للغلام: «إن أذنت لي أعطيت هؤلاء» فقال الغلام: ما كنت لأوثر بنصيبي منك يا رسول الله أحداً، فتلَّه في يده. ومعنى فتلّه، أي: وضعه في يده ، ودفعه إليه.

فالصحابة كانوا يتبرّكون بالشرب من موضع فم النبي ﷺ من الإناء، والغلام لم يتنازل عن حقه في الشرب قبل الأشياخ الكبار، حرصاً على أن يكون أول من يشرب بعد رسول الله ﷺ.

والشاهد في الحديث أن النبي ﷺ استأذن الغلام في أن يقدم عليه الأشياخ، لأن الغلام كان على يمين النبي ﷺ، وكان الأحق بالشراب أن يقدم إليه قبل الجالسين عن يساره... وعندما أصرّ الغلامُ على حقه ودوره، لم يوبّخه أحد، أو يصفه أحد أنه قليل الأدب. فالغلام يُحترم كالأشياخ، ولا يتم تجاوزه إلا بإذنه.

❖ التعبير عن الحب:

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاه فَلْيُخْبِره أَنَّهُ يُحِبُّهُ» رواه أبو داود وصححه ابن دقيق العيد في "الاقتراح"، والشيخ الألباني في "السلسلة الصحيحة"

وفي رواية الترمذي: «إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه إياه» (الجامع الصحيح).

وروى أبو داوود في سننه عن أنس - رضي الله عنه - أن رجلاً كان عند النبي ﷺ، فمرّ رجل، فقال: يا رسول الله! إني لأحب هذا، فقال له ﷺ: «أَعْلَمْتَهُ؟»، قال: لا. قال: «فَأَعْلِمْه». فلحقه، فقال: إني أحبك في الله. قال: أحبَّك الذي أحببتني له.

لا شيء يقوي الحب بين اثنين مثل التعبير عن الحب، فإنه ما من أحد من الناس إلا ويستشعر في أعماقه حاجة ورغبة في أن يحبه الآخرون.. هكذا فطرنا الله الودود.

والذي يحبّني، ثم يأتي إلي ويخبرني أنه يحبني، فإنه بذلك يسعدني، ويجعل الحياة في عيني أجمل. وعلمي لحبه لي يجعلني أحبه إن كنت معجباً به

ولو بعض الإعجاب.. وكيف لا أحبه وقد أسعدني بحبه لي، وأشبع حاجة في نفسي فطرتُ عليها؟

وهكذا أطفالنا.. إذا ما عبّرنا لهم عن حبنا إياهم سعدوا، وابتهجوا، وأحبونا بالمقابل، وإذا ما أحبونا استمثلونا، فكان ذلك لهم تربية بالحب.

ولكن - ويا للأسف - يخطىء كثير من الآباء والأمهات، فيظن أحدهم أنه إذا عبّر عن حبه لابنه أو ابنته بقوله له أو لها: «إني أحبكَ» أو: «إني أحبكِ» أو بتقبيله، أو تقبيلها، أن ذلك سيهدّد مكانته عند ابنه أو ابنته، وسيجعل سلطته عليهما أضعف. فما أكثر الذين لا يذكرون يوماً سمعوا فيه كلمة حب واحدة من والديهم، ولا يذكرون يوماً قبّلهم فيه آباؤهم، أو أمهاتهم؛ إذ يقبّل هؤلاء الأباء والأمهات أولادهم عندما يكونون صغاراً في سنواتهم الأولى، وما أن يصبح أولادهم أكثر وعياً حتى يتوقفوا هم عن إظهار علامات الحب لهم من تقبيل، وعناق، واعتراف بالحب باللسان.

مخطئون كثيراً هؤلاء الآباء والأمهات؛ لأن التعبير عن الحب يرفع من مكانتنا في نفوس أولادنا، ويجعلهم أكثر طاعة لنا، وأكثر حرصاً على إرضائنا.

ويروي البخاري في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قَبَّلَ الرسول الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إنّ لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَم».

وروى البخاري أيضاً في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها- أنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهمْ، فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة».

أما إن كان المقصود من التعبير عن الحب مطالبة المحبوب بواجبات يظنها المحب حقاً له على المحبوب لمجرد أنه يحبه، فإن هذا التعبير يصبح غير سار، فلئن أحبني شخص ما فإنه هو المسؤول عن ذلك، وحبه لي لا يلزمني

بشيء تجاهه إلزاماً، ولا يجعل له حقوقاً علي، إلا إن أنا بادلته حباً بحب، فعندها يلزمني حبي له (لا حبه لي) أن أهتم به وأرعاه، وهذا ينطبق على أولادنا مثلما ينطبق علينا نحن معشر الكبار.

❖ حب الأم وحب الأب:

يميل حب الأم لأولادها إلى أن يكون حباً متقبلاً لهم على عيوبهم، وإلى أن يكون حباً غير مشروط بشروط يحققها الأولاد كي يستحقوا حبها، بينما يميل حبّ الآباء إلى أن يكون حباً مشروطاً، أي يحب الأب أولاده بقدر ما يحققون من آماله فيهم، وبقدر ما يكونوا أولاداً مثاليين ناجحين مطيعين.

ولعل الحمل والولادة يرسخان في نفس الأم إحساساً عميقاً بأن أولادها قطع منها؛ لذا تبقى أميل إلى أن تقبلهم بعيوبهم، وأميل إلى أن يكون حبها لهم لمجرد أنهم أولادها، لا لسبب آخر من مثل النجاح في الحياة، والتحقيق لطموحات الأم وغير ذلك.

إنَّ ميلَ الأم إلى أن تحب أولادها ذلك الحب غير المشروط يهوّن عليها تقديم الرعاية لهم، تلك الرعاية التي هم في حاجة ماسة إليها.

بينما يؤدي ميل الأب إلى أن يحب أولاده حباً مشروطاً إلى أن يقوم الأب بدور المربي، والحارس للقيم، والمبادىء، والأخلاق.

وقد لاحظ العلماء أن الأطفال يعيشون في قلق دائم نتيجة إحساسهم أن والديهم لا يحبونهم إلا إن كانوا متفوقين في دراستهم، ومطيعين، ومهذبين؛ فترى الطفل يحرص على المثابرة في الدراسة، وعلى تنفيذ أوامر والديه خشية أن يفقد حبهما، وهما بالنسبة له كل شيء، وكيف له أن يعيش دون حبّهما؟.

إن مثل هذه الحالات، وما يقابلها من حالات فساد بعض الأطفال نتيجة إغداق الحب عليهم، والتغاضي عن أخطائهم إلى حد الدلال المفرط المفسد، هذا وذاك يجعلنا نبحث عن الوضع الصحيح السليم المتوازن.

والوضع الصحيح المتوازن هو أن نفصل بين الحب والتأديب لأطفالنا، فلا نعاقبهم إن أخطؤوا بتهديدهم بأننا لن نحبهم بعد الآن، أو بسحب حبنا لهم فعلاً، بل نعاقبهم إن هم أخطؤوا، ونطمئنهم في الوقت نفسه إلى أننا ما زلنا نحبهم، وإن كنا سنحبهم أكثر لو كانوا مستقيمين مهذبين، وأننا لا نكرههم الآن، إنما نحن غير راضين عما فعلوه.

إذاً يجب أن لا يمنعنا حبنا لأولادنا من تأديبهم، لأن الحب الحقيقي يقتضي الحرص على هذا الصغير الذي وضعه الله أمانة في أيدينا، نأخذ بيده حتى يكبر دون أن تتشوه فطرته السليمة التي ولد عليها.

وبالمقابل فإن تأديبهم ومعاقبتهم يجب أن ينبعا من حبنا لهم؛ الذي يجب أن يبقى بادياً لهم وظاهراً، بحيث يكون مصدر الطمأنينة لهم، وبحيث يشعرون أن تأديبنا لهم ليس إلا مظهراً من مظاهر اهتمامنا بهم، وليس مظهراً لرفضنا لهم، وكراهيتنا إياهم، ولا انتقاماً منهم، لأنهم خيبوا آمالنا، وتسببوا لنا بالإحباط إذ لم يحققوا في أنفسهم ما تمنينا أن نراه في (أولادنا).

❖ الحب والتملّك:

ويجب علينا أيضاً أن نميز بين حبنا لأولادنا الحب الحقيقي، الذي ندرك من خلاله ذواتهم المستقلة، وأن لهم شخصياتهم المستقلة عنا، التي علينا أن نساعدهم على أن تنمو قوية مستقلة، بحيث يمكنهم الاعتماد على أنفسهم عندما يكبرون؛ وبين نوع من الحب الكاذب يتورط فيه بعض الآباء والأمهات، حيث ينظرون إلى الطفل نظرتهم إلى شيء يملكونه، فهم يحبونه كما يحبون أشياءهم، أو كما يحب صاحب الهرة هرته.

فمن من الناس سيبقى على حبه لهرته التي رباها منذ صغرها إن هي أصرت على أن تكون لها شخصيتها المستقلة عنه، وعلى أن تفعل باستقلالية تامة وإرادة خاصة؟!

وقد لوحظ أن بعض الأمهات يكنّ مغرمات بأطفالهن في السنتين الأوليين من العمر، ثم ما إن يبدأ الطفل في إظهار بعض الاستقلالية عنهن، ويبدأ بمخالفتهن وإظهار رغباته الخاصة، حتى تفقد الأم اهتمامها به، وتهمله بالفعل، وتسعى إلى الحمل من جديد، وكأنها تريد أن تنجب دمية أخرى تشبع رغبتها في التملك.

إن حبنا لأولادنا يلزمنا أن نساعدهم على نمو شخصياتهم، ولو أدى ذلك إلى أن تكون لهم آراؤهم المخالفة لآرائنا، وأن تكون رغباتهم مختلفة عن رغباتنا.

فمن الخطأ البالغ أن نحاول أن نجعل أطفالنا نسخاً كربونية عنا، أو بمثابة ظلال لنا، أو تابعين لا يتميزون بشخصياتهم المستقلة.

******



الفصل السابع
فلنخاطبهم على قدر عقولهم

❖ تمهيد:

هذه صفحات من علم نفس النمو أقدمها للقراء الأعزاء، لإيماني بأهميتها الكبيرة لنا جميعاً، آباء وأمهات، مدرسين ومدرسات، كتاباً للأطفال وكاتبات، وشعراء للأطفال وشاعرات، وواضعي مناهج دراسية وواضعات.

في هذه الصفحات نجد أيضاً الإجابة على سؤالين قد يخطران ببالنا وهما: لِمَ كان التكليف يبدأ مع البلوغ الجنسي؟ والثاني: لِمَ كان علينا أن نبدأ بأمر أولادنا بالصلاة وهم أبناء سبع وليس قبل ذلك؟

أما الأمر الهام جداً الذي تعيننا هذه الصفحات عليه فهو مخاطبة أولادنا على قدر عقولهم.

ذلك أنني عندما أدخل مكتبة، أو معرضاً للكتاب، وعندما تقع عيني على كتب للأطفال، أقلب صفحاتها، وأقرأ مقاطع منها، لأرى إن كانت تصلح لابني أو ابنتي؛ وأنا لا أقيس مدى صلاحية تلك الكتابات بحسب ما فيها من دعوة إلى مكارم الأخلاق فحسب، إنما أقيّم مدى نجاح هذه القصة أو القصيدة في إيصال ما تريد أن تقوله إلى عقل طفلي. أي إلى أي حد هي قابلة للفهم من قبل ابني ذي الثمان سنوات مثلاً، أو ابنتي ذات السبع سنوات.. هل هي تخاطب الأطفال على قدر عقولهم؟... وما أكثر ما تعرضت للخيبة وأنا ابحث عما يناسب أطفالي الذين هم في المرحلة الابتدائية.

وما أندر المرات التي عثرت فيها على قصص أو أشعار تخاطبهم بلغة يستطيعون فهمها حق الفهم.

فالكثيرون ممن يكتبون للأطفال هذه الأيام في بلادنا، تدفعهم الحماسة لنشر الكلمة الطيبة من جهة، والفقر الواضح في مكتبة الطفل العربي من جهة أخرى، فيمسكون بالقلم ويكتبون، فيتبسطون في العبارات بعض التبسُّط، بحيث تخرج العبارة، مما يترفع عن أن يُخاطَب بها الكبار، لكنها تبقى مليئة بالمفاهيم المجردة، التي لا يمكن لطفل في الثامنة من عمره مثلاً أن يفهمها، حتى لو أمكنه حفظها عن ظهر قلب، فهو ما يزال عاجزاً عن امتصاص المفاهيم التي فيها، وعن هضمها هضماً عقلياً.

وهكذا نجد السوق ملأى بقصص للأطفال، وكذلك بعض كتب الشعر التي لا تصلح للكبار بالتأكيد، ولا تصلح للأطفال أيضاً.

وإن وجود بعض الكتابات الناجحة التي تخاطب الطفل بما يفهم هو الاستثناء، والمشكلة تبقى قائمة، فالعبرة بالأكثرية.

إننا مربّون وبحاجة إلى أن نفهم بعض مكتشفات علم نفس النمو، التي تبين الطريقة التي ينتقل فيها الطفل عقلياً من مرحلة إلى أخرى، وما يستطيع فهمه في كل مرحلة، وذلك حتى نتمكن من أن نخاطبه باللغة التي يفهمها، وأن نقدم له من المفاهيم ما يستطيع استيعابه، حتى يكون لخطابنا له الأثر المطلوب.

فعلى الرغم من أن الحديث المنسوب إلى النبي ﷺ الذي يقول: «أُمِرْتُ أن أخاطب الناس على قدر عقولهم» حديث شديد الضعف كما يقول العجلوني في كتابه (كشف الخفاء) فإن المعنى الذي يتضمنه هذا القول صحيح بشكل واضح، لا يحيد عنه الذين يخاطبون الأطفال بمفاهيم لا يمكنهم فهمها، جهلاً منهم بأن الحكمة تقتضي مخاطبتهم لهم على قدر عقولهم، إنما السبب في ذلك،

أن أكثرنا يظن، أن الطفل يستطيع فهم كل المفاهيم كالكبار، ولا يحتاج ذلك من جهتنا، إلا إلى عبارة فيها تبسط، ومن جهة الطفل إلى الانتباه والاهتمام.

لكن الذي اكتشف في القرن العشرين، أثبت أن الطفل يمرُّ بمراحل عقلية متدرجة، لا بد لكل طفل من أن يمر فيها، تسلمه الأولى إلى الثانية، وتسلمه الثانية إلى الثالثة، وهكذا... حتى يصل إلى البلوغ العقلي، ثم إلى الرشد، حيث يصير كغيره من الكبار الراشدين.

وسأعرض فيما يلي لتلك المراحل باختصار، أرجو أن يكون مفيداً، وأرجو أن ينهض من هو أقدر مني، لمهمة نقل هذه الدراسات عن الطفل، بشكل مفصل وموسع، لينتفع بها أطفال هذه الأمة. وقبل الحديث عن مراحل النمو العقلي لا بد من كلمة حول (المفاهيم) و(القضايا).

❖ المفاهيم والقضايا:

يقول مؤلفو كتاب (مقدمة إلى علم النفس) عن المفاهيم ما يلي:

(يمتلئ العالم بأشياء مختلفة لا تعد ولا تحصى، ولو كان علينا أن نعامل كل شيء فيه على أنه شيء فرد متميز، له هويته الخاصة به، لعجزنا عن ذلك؛ فلو كان علينا أن نسمي كل شيء نواجهه باسم مختلف، لتضخمت مفرداتنا بشكل رهيب، إلى حد يصبح معه التواصل والتفاهم بين الناس مستحيلاً.. ولنا أن نتفكر ونتخيل، كيف سيكون الحال لو كان عندنا اسم لكل من الملايين السبعة من الألوان التي نستطيع تمييزها.

ولكننا لحسن الحظ لا نعامل كل شيء على أنه فريد بل على أنه مثال لمفهوم أو نوع.

وبهذا فإن أشياء مختلفة كثيرة نراها كأمثلة على مفهوم (تفاحة) وأشياء مختلفة كثيرة غيرها على أنها أمثلة لمفهوم (كرسي) وهكذا...

إننا عندما نعامل الأشياء المختلفة على أنها أعضاء في مفهوم واحد فإننا نقلل من تعقيد العالم الذي علينا أن نمثّله في عقولنا.

إن معاملة الأشياء المختلفة على أنها أفراد في المفهوم نفسه يعني: أننا نعاملها كما لو كانت تقريباً متطابقة من حث الخصائص التي تميز ذلك المفهوم. فعلى سبيل المثال: إن مفهومنا عن (تفاحة) يتميز عن طريق خصائص من مثل: امتلاكها للبذور، ونموها على الأشجار، وكونها تؤكل، وكونها مدورة، ولها ألوان مميزة... وهكذا.

وعندما نصنف شيئاً ما على أنه (تفاحة)، فإننا نفترض أن هذا الشيء له تلك الخصائص المميزة لمفهوم (تفاحة).

إن لعملية التصنيف هذه أهمية في الطريقة التي نتعامل بها مع الأشياء من حولنا، فعندما ندرك بعض الخصائص المنظورة لشيء ما، ولنقل (شيء مدور وأحمر على شجرة)، فإننا نعزوه وننسبه إلى مفهوم (تفاحة)، وهذا يسمح لنا أن نستنتج خصائص أخرى لهذا الشيء غير منظورة لنا، من مثل أنه له بذور، وأنه قابل لأن يؤكل.

وبهذا فإن المفاهيم تمكننا من أن نذهب إلى أبعد من المعلومات المتوفرة لنا مباشرة.

ونحن لدينا أيضاً مفاهيم للأفعال والنشاطات مثل (الأكل)، وللحالات مثل (كون المرء عجوزاً) وللمجردات مثل (الصدق) و (العدالة) أو حتى العدد (اثنان).

إننا في كل حالة نعرف أشياء عن الخصائص المشتركة ما بين أفراد المفهوم، ونربط المفاهيم واسعة الاستعمال كهذه، بأسماء كل منها مؤلف من كلمة واحدة، وهذا يسمح لنا أن نتواصل ونتفاهم فيما بيننا عن الخبرات التي تحدث لنا بشكل متكرر.

إذاً كل مفردة لغوية هي اسم لمفهوم من المفاهيم، والكلمة التي ما يزال الطفل غير مالك للمفهوم الذي تدل عليه، تكون بلا معنى بالنسبة لذلك الطفل، والطفل يولد وليس لديه من المفاهيم شيء، إنما لديه القابلية لتكوين هذه المفاهيم، وتعلمها، واكتشافها: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: 78].

فالطفل يكتشف المفاهيم من خلال ملاحظته لما يقوله الكبار، وكيف يشيرون إلى أشياء مختلفة بالكلمة نفسها، فيقوم عقله باستخلاص الخصائص المشتركة بين هذه الأشياء المختلفة التي يشير إليها الكبار بالكلمة نفسها، ومجموع هذه الخصائص المشتركة أدخله تحت المفهوم، واعتبره مثالاً عليه. فليست الكراسي التي في الوجود، أو التي وجدت من قبل، أو التي ستوجد متطابقة، لكن هنالك مجموعة خصائص مشتركة ما بينها جميعاً، تجعل العقل يطلق على كل منها اسم (كرسي).

وليست الطيور الموجودة والطيور التي وجدت والتي ستوجد متطابقة، لكن هنالك مجموعة خصائص مشتركة ما بينها جميعاً، تجعل العقل يطلق على كل منها اسم (طير) وهكذا.

فإذا سمع الإنسان كلمة (كرسي) استحضر في عقله تلك الخصائص الخاصة بمفهوم (كرسي)، وتوقع أن تكون تلك الخصائص موجودة في الشيء الذي قيل عنه (كرسي).

وكذلك إذا سمع كلمة (طير) استحضر في عقله تلك الخصائص المكونة لمفهوم (طير) وتوقع أن تكون موجودة في الشيء الذي قيل عنه أنه (طير). وهذا ينطبق على الأشياء، وعلى الأفعال والحالات والمجردات والأعداد.

والطفل قادر على تعلم المفاهيم، لكنه ليس قادراً على تعلم كل المفاهيم، فالمفاهيم منها المُجَسَّد، الذي يدل على أشياء يمكن إدراكها بالحواس، وبالتالي يمكن تخيلها مثل: (كرسي) و (طير) و (أكل) و (لعب)؛ ومن

المفاهيم ما هو مُجَرَّد، يدل على أشياء عقلية مجردة، نراها بعقولنا لا بعيوننا، من مثل (العدل) و(عَدَلَ) و(الحق) و(العظمة) و(العلم) و(القدرة).

وهنالك مفاهيم تجمع بين التجسيد والتجريد، كقولنا (عالم) و (عادل) فهي مفاهيم مجردة ملتصقة بشخص معين مثلاً، فتكتسب قدراً من التجسيد من خلاله.

ودراسة مراحل النمو العقلي تدلنا على المفاهيم التي يستطيع عقل الطفل تعلمها في كل عمر من الأعمار، كما تبين لنا تسلسل ظهور هذه المفاهيم، وبالتالي القابلية لتعلمها عند الطفل حسب العمر، وأياً منها يظهر أولاً، وما الذي يتلوه عادة.

والإنسان، صغيراً كان أو كبيراً، قادر على تكوين المفاهيم، حتى لو لم يتعلمها من أحد، وأوضح مثال على ذلك، أن الإنسان صنف الكائنات الحية إلى نباتات وحيوانات، وصنف الناس ما يأكلونه من النباتات، إلى خضراوات وفواكه؛ فالنبات مفهوم غير الحيوان، والخضراوات مفهوم غير الفواكه.

ولكن، مثلما هو الحال بخصوص تعلم المفاهيم، لا بد من النمو العقلي المناسب، لامتلاك القدرة على تكوين المفاهيم.

إننا في طفولتنا الأولى، نفكر من خلال الأفعال والحركات بشكل أساس، ويبقى جزء من تفكيرنا حركياً طيلة حياتنا، وذلك بما يخص المهارات؛ فالأفعال التي نؤديها، تكون ممثلة في عقولنا كأفعال، فلو أردنا تعليمها لغيرنا لقلنا له: (افعل هكذا ثم افعل هكذا..) بينما نريه الفعل كيف يكون، وعادة لا نقدر على الاعتماد على اللغة وحدها لوصف الفعل وصفاً كاملاً.

ومع نمو الطفل، فإن عقله يستخدم الصور والتخيلات في التفكير، إذ تكون قدرته على التخيل، قد نمت كثيراً. وحتى الكبار، يبقى بعض التفكير لديهم تخيلياً وتصورياً، عن طريق استحضار صور الأشياء في العقل، وربطها ببعضها بعضاً .

ثم مع التقدم في عمر الطفل أكثر، يسود نمط من التفكير عند الإنسان، يعتمد على اللغة والرموز، ويسمى (التفكير بالقضايا)، وهو تفكير يعتمد على ضم المفاهيم بعضها إلى بعض، ليصوغ منها قضايا عقلية، وذلك وفق قواعد منطقية، تقبلها جميع العقول عادة.

وواحدة من القواعد المنطقية، القاعدة التي وفقها نضم المفاهيم إلى بعضها بعضاً، لنكون قضية تحتوي على (موضوع) و(محمول) كقولنا: (السماء صافية)، فالسماء هي الموضوع، وصافية هي المحمول (أو الوصف).

وفي القضية التالية: (الخياط نائم) يكون الخياط هو الموضوع ونائم هو المحمول.

وفي (المعلمات يعملن بجد كبير) تكون المعلمات هي الموضوع و (يعملن بجد كبير) هي المحمول.

والملاحظ أن المحمول يكون في بعض الحالات صفة: (صافية)، وفي بعضها حالاً: (نائم)، وفي بعضها فعل ونشاطاً: (يعملن بجد كبير).

إن ضم المفاهيم في قضايا، هي الخطوة الأولى نحو الأفكار المعقدة، ويتم انجاز باقي الخطوات، بضم القضايا نفسها إلى بعضها بعضاً.

ويبدو أن هنالك طرقاً معينة، نستطيع من خلالها أن نضم القضايا، لتعطي أفكاراً، وأسهلها، طريقة مجاورة المفاهيم، وإضافتها إلى بعضها بعضاً، كقولنا: (سعاد تحب الخضراوات، لكن صفاء تحب اللحم).

أما الطريقة الأكثر تعقيداً لضم القضايا، فهي ربط قضية ما بجزء من قضية أخرى، فمثلاً في قولنا: (أحمد يحب الثوب الأزرق) قضيتان: (أحمد يحب الثوب) و (الثوب الأزرق)؛ فالقضية الثانية ربطت بجزء من محمول القضية الأولى الذي هو (يحب).

وربما كانت أعقد طريقة لضم القضايا، هي أن ندخل قضية في قضية من مثل قولنا: (إن حبَّ سعيدٍ لذلك المطعم كان مفاجأة للجميع)؛ فالقضية الأولى (سعيد أحب المطعم)، استعملت كموضوع للقضية الثانية (كان مفاجأة للجميع)، التي استعملت كمحمول، وبهذا تكون القضية الأولى قد أدخلت في الثانية، وهذا الإدخال، يمكننا من صياغة أفكار معقدة جداً.

إن استيعاب هذه اللمحة عن المفاهيم والقضايا العقلية مفيد جداً لفهم ما سيأتي من بيان لبعض الملامح الهامة لمراحل النمو العقلي عند الطفل، الذي سنعتمد فيه بشكل أساس على مكتشفات العالم السويسري جان بياجيه Jean Piaget المولود عام (1896) والمتوفى عام (1980).

*****

مراحل النمو العقلي عند الطفل

الطور الأول: الطفل الرضيع
(السنتان الأولى والثانية من العمر)

لقد دعا العالم بياجيه السنتين الأوليين من العمر **الطور الحسي الحركي**، لما لاحظه من تآثر (أي تأثير متبادل) ما بين النشاط الحركي والإدراك الحسي عند الرضيع.

فخلال هذه الفترة، يكون الرضيع مشغولاً في اكتشاف العلاقات ما بين أفعاله وعواقبها.

فعلى سبيل المثال، يكتشف الرضيع المدى الذي عليه بلوغه كي يمسك بشيء ما، ويكتشف ما يحدث عندما يدفع طبق طعامه إلى حافة المائدة، ويكتشف أن يده جزءًا من جسمه، وأن حاجز السرير ليس جزءًا منه.. ويبدأ الرضيع، من خلال تجارب لا تعد، في تطوير مفهوم لنفسه، ككائن منفصل عن العالم الخارجي.

ومن الاكتشافات الهامة خلال هذا الطور: مفهوم بقاء الأشياء، أي: الإدراك أن الشيء يبقى ويستمر في الوجود حتى عندما لا يكون في متناول حواس الرضيع كأن يغيب عن ناظره مثلاً.

فإذا ما غطينا لعبة كان رضيع في الشهر السابع أو أصغر يحاول أن يصل إليها، إذا ما غطيناها بقطعة قماش، فإن الرضيع على الفور يتوقف عن محاولته الوصول إليها، ويبدو عليه أنه فقد اهتمامه بها، كما يبدو غير مندهش ولا

منزعج، ولا يقوم بأية محاولة للوصول إليها، بل يتصرف كما لو أن اللعبة لم يبق لها وجود على الإطلاق.

أما الرضيع ابن العشرة أشهر، فإنه على العكس يبحث بنشاط عن الشيء الذي غطيناه وخبأناه تحت القماش أو خلف ستار.

إن هذا الرضيع الأكبر يبدو عليه أنه يدرك أن الشيء يبقى موجوداً حتى لو لم يكن مرئياً.

لقد حقق هذا الرضيع وامتلك مفهوم (بقاء الأشياء)، مما يدل على أنه صار يمتلك تمثيلاً أو صورة عقلية للشيء المفقود.

ولكن حتى في عمر عشرة أشهر، يبقى البحث عن الشيء محدوداً، فلو أننا أخفينا اللعبة في مكان ما، وعثر عليها، ثم كررنا إخفاءها، وتكرر عثوره عليها في المكان نفسه، ثم أخفيناها وهو ينظر، في مكان جديد، فإنه يستمر في البحث في المكان الأول الذي تكرر عثوره عليها فيه، إنه يكرر الفعل الذي أعاد له لعبته، أكثر من البحث عنها، حيث شاهدنا نضعها آخر مرة .

ويحتاج الرضيع عادة إلى أن يبلغ عمره سنة كاملة، حتى يدرك الموقف جيداً، فيبحث عن لعبته في المكان الجديد، بغض النظر عن عثوره عليها لعدة مرات في المكان الأول.

الطور الثاني: الطفل المُبين

(السنوات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة)

في وقت ما خلال السنة الثانية من الحياة، يبدأ الأطفال في الانشغال في عدد من النشاطات الرمزية، وأحد أبرز هذه النشاطات، هو إنتاج الكلمات؛ ولكن هناك أوجه أخرى أيضا لهذه الوظيفة الرمزية المنبثقة، فإنه للمرة الأولى يقوم الأطفال بإبداع الرموز، فقد يرفع طفل صغير قطعة بطاطا عالياً، ويقول (فراشة)، أو قد يصالب عودي آيس كريم، ويسمي الناتج (طيارة).

وتتوضح الوظيفة الرمزية من خلال تصرفات أخرى أيضاً، ففي الوقت الذي يبلغ فيه الطفل السنة الثالثة أو الرابعة فإنه ينهمك في تشكيلة من اللعب اللفظي أي اللعب بالألفاظ، حيث الألفاظ نفسها ولكن المعاني تختلف.

فالأطفال المبينون الذين يتظاهرون أنهم أمهات وآباء ويمشون بتثاقل في أحذية الكبار أو قبعاتهم يوضحون بذلك نمطاً آخر من ترميز خبراتهم. فقدرة الطفل على تقليد الأشخاص والأشياء والنشاطات الغائبة تعكس نشاطاته الرمزية المتطورة حديثاً.

ومع أن عالم الطفل المبين صار أكثر إحكاماً بكثير من عالم الرضيع إلا أنه مايزال بدائياً إلى حد ما بمعايير الكبار لأنه مع أن الطفل المبين يمتلك الآن الذكاء الذي يتعامل به مع العالم العملي المباشر للبيت ودار الحضانة فإنه ما يزال يفتقد المفاهيم العامة الأكثر تجريداً واتساعاً عن السببية والزمان والمكان التي تميز عالم الكبار.

وفي الحقيقة فإنه بمعاير الكبار مايزال رؤية الطفل المبين إلى العالم الأكبر خارج حدود العالم المباشر المحيط به غامضة.

يمتلك الأطفال الصغار في هذا الطور على سبيل المثال رؤية روحية للعالم الأوسع أي للأشياء أرواح أو أنفس، فيعتقدون أن الأشجار والنباتات بالإضافة إلى الغيوم المتحركة، والأحجار المتدحرجة يمكن أن يكون لها دوافع ونوايا.

إن خوف الأطفال الصغار في الأماكن الغريبة عنهم يعكس هذه النزعة الروحية.

والأطفال الصغار يمكن أن يروا الأغصان المتحركة والظلال المتحركة كقوى شريرة. والأفلام السينمائية للأطفال تستخدم أحياناً هذه الأدوات مثل الأشجار والنباتات المهددة مستفيدةً من نمط التفكير الروحي عند الأطفال المبينين.

ويختلف إحساس الأطفال الصغار بالسببية عن إحساس الكبار فتفكير أطفال هذا الطور يتميز بما يسمى: السببية الظواهرية أي: الاعتقاد أنه في كل حادثتين تحدثان متتابعتين تكون الأولى سبباً للثانية .فعلى سبيل المثال لو رفع طفل صغير الستارة في الصباح ورأى من خلال النافذة الشمس تشرق في الأفق لربما اعتقد أن رفعه للستارة سبب شروق الشمس.

إن قابلية الطفل الصغير للاعتقاد بالعصا السحرية وما شابه تكمن جزئياً في السببية الظواهرية هذه. وفي عالم تحكمه مثل هذا النوع من السببية لا يوجد حدود للأسباب والنتائج الممكنة.

وهنالك نمط آخر من التفكير عند الطفل المبين قريب من السببية الظواهرية وهو ما يسمى: الحقيقة الاسمية.

إن لدى الأطفال الصغار توقير خاص للأسماء والرموز لكل الأشياء.

إن قدرتهم الجديدة على إبداع الرموز لا تحمل معها على الفور القدرة على التمييز بوضوح ما بين الرمز والمرموز له، إذ يميل الأطفال الصغار إلى الاعتقاد أن الرمز له بعض صفات المرموز له.

فالأطفال الصغار يعتقدون أن اسم القمر كائن في القمر، وبالتالي من المستحيل أن يدعى القمر باسم آخر. فأسماء الأشياء ليست تعيينات اصطلاحية بالنسبة للطفل الصغير، إنما هي بنظره خصائص للموضوعات التي تمثلها، فالقمر اسمه قمر تماماً مثلما أنه مدور مثلاً، لذا يغضب الطفل إن أنت خاطبته بغير اسمه.

إن الحقيقة الاسمية تعنينا في تفسير بعض أوجه السلوك الاجتماعي عند الأطفال الصغار وبخاصة الصعوبة في التشارك.

فبالنسبة للطفل الصغير تكون ألعابه وممتلكاته رموزاً لنفسه، وبالتالي يراها كجزء من نفسه. وعندما نطلب منه أن يشارك طفلاً آخر بلعبته، فإننا في الحقيقة نسأله أن يشارك الآخر بجزء من نفسه، وبهذا يمكننا تفهم مقاومته للتشارك.

وهنالك طريقة لمساعدة الأطفال الصغار على التشارك، وهي: أن نكتب اسم الطفل بخط كبير على اللعبة المطلوب منه مشاركتها مع غيره، وبوضع اسمه على اللعبة، يطمئن الطفل إلى أنها ما زالت له، وما زالت جزءاً منه.

والأطفال الصغار متمحورون حول ذواتهم أي حول أناهم، أي هم أنويون (نسبة إلى الأنا)، والأنوية هنا ليست مذمة لهم، إنما هي مثل الحقيقة الاسمية والسببية الظواهرية، تعكس نمطاً مميزاً لهم من التفكير.

وعلى العموم فإن الأطفال الصغار غير قادرين على أن يأخذوا وجهة نظر شخص اخر عندما تكون مختلفة عن وجهة نظرهم. فإذا وقفت مقابل طفل في الرابعة أو الخامسة من عمره، وسألته أن يريك يده اليمن ويده اليسرى، ثم أن يريك يدك اليمنى ويدك اليسرى، فإن أنويته تكون سهلة الملاحظة عند ذلك.

إن الطفل الذي يعرف يده اليمنى ويده اليسرى لا يدرك أنه بالنسبة لشخص يقف مقابله فإن اليمين واليسار سينعكسان، وبالتالي فإنه يفترض أن كلاً من يدك اليمنى ويدك اليسرى ستكون بنفس الجهة من جسمه كما هي من

جسمك (أي: إن يدك اليمنى على يمينه هو، ويدك اليسرى على يساره هو).. إنه مازال غير قادر على أن يضع نفسه عقلياً في مكان شخص آخر، وبالتالي على أن يميز نسبية اليمين واليسار.

إن أنوية الطفل الصغير كثيراً ما تضعه في مآزق مع الكبار.. إنه لا يشعر بنشاطات الكبير مهما كانت متقلقلة وحساسة، فيقوم بما يقطع على الآخرين تركيزهم في شيء ما لأنه غير قادر على إدراك ما يجري في عقولهم، فقد يصرخ في أذن أمه في اللحظة التي تكون فيها على وشك إدخال الخيط في الإبرة، أو في اللحظة التي يكون فيها أبوه سيضرب ضربة الغولف.

وغالباً لا يكفي أن تطلب منه أن يهدأ حتى تتمكن من الكلام على الهاتف كي يقلل من ضوضائه، والسبب في ذلك كله، هو عجزه عن يأخذ وجهة نظر غيره، وليس سوء أدب وتصرف.

ومع أن الأطفال ذوي الثلاث أو الأربع سنوات يستطيعون التفكير بطرق رمزية فإن كلماتهم وصورهم العقلية ليست منظمة بطريقة منطقية كما هي الحال عند الكبار، لذا يدعو بياجيه المرحلة ما بين السنتين الثانية والسابعة من التطور المعرفي عند الطفل (مرحلة ما قبل العمليات)، وذلك لأن الطفل ما زال عاجزاً عن فهم قواعد أو عمليات عقلية معينة، والعملية العقلية هي روتين عقلي لمعالجة المعلومات،أي طريقة متكررة لمعالجة المعلومات في عقولنا، وهي بالضرورة عكوسة (أي: قابلة للتطبيق بالاتجاهين) أي: أن لكل عملية ضدها المنطقي، فقطع دائرة إلى أربع أرباع متساوية هو عملية، لأننا يمكن أن نعكس الإجراء بأن نضع القطع بحيث تشكل دائرة من جديد.

وكذلك القاعدة في تربيع الرقم (3) للحصول على (9) هي عملية لأننا نستطيع أن نعكسها بأن نأخذ الجذر التربيعي لـ (9) لنحصل على (3).

وفي طور الطفل المبين (مرحلة ما قبل العمليات) يكون فهم الطفل لمثل هذه العمليات ضعيفاً أو غائباً.

وقد وضح بياجيه هذا النقص ببعض التجارب على تطور ما سماه (الحِفاظ) أو المحافظة.

والمقصود بالحفاظ محافظة الأشياء على بعض خصائصها رغم تبدل خصائص أخرى فيها، كمحافظة الشيء على كتلته أو وزنه بغض النظر عن الشكل الذي يأخذه، وكمحافظة مجموعة من الأشياء على عدد أفرادها بغض النظر عن الطريقة التي تصطف بها هذه الأشياء.

ونحن الكبار نعتبر مبادئ الحفاظ أموراً مسلماً بها، فالكتلة أو مقدار المادة يبقى كما هو عندما يتغير شكلها أو عندما نقسمها إلى أجزاء، والوزن الإجمالي لمجموعة من الأشياء يبقى كما هو بغض النظر عن الطريقة التي تكون الأشياء مجمعة وموضبة فيها.

وبالمثل فإن السوائل لا يتغير مقدارها عندما نصبها من وعاء ذي شكل إلى وعاء ذي شكل آخر.

أما بالنسبة للأطفال الصغار فإن وصولهم إلى هذه المفاهيم يعد جانباً هاماً من نموهم الذكائي، ويتطلب عدة سنوات لتحقيقه.

وفي دراسة لحفاظ الكتلة، أعطي طفل بعض المعجون ليصنع منه كرة مساوية لكرة أمامه من المادة نفسها، وبعد قيامه بذلك أعلن الطفل أن الكرتين متماثلتين.. ثم تركت واحد من الكرتين كمرجع وقام المجرب بمعالجة الأخرى، بحيث تصبح متطاولة مثل النقانق أو مثل موزة أو خيارة، والطفل يراقب ذلك. هو يرى بوضوح أنه لم يُضَف أي معجون ولم يُنقص منه، وفي هذه التجربة يعتقد أكثر الأطفال الذين أعمارهم حوالي الأربع سنوات أن الكرة والموزة اللتين أمامهم لا تحتويان على المقدار نفه من المعجون، كما كانت الحال عندما كانتا كرتين، فهم يعتقدون أن الأطول تحتوي على معجون أكثر، ولا يستطيع أغلب الأطفال أن يدركوا أن المعجون في الشيء الأطول مساوٍ للمعجون في الكرة الشاهد حتى بلوغهم عمر سبع سنوات.

ويمكن استخدام التجربة نفسها لدراسة حفاظ الوزن عند الطفل، فعلى سبيل المثال، فإن الأطفال الذين يعرفون أن الأشياء المتساوية تتعادل على الميزان يمكنهم اختبار ذلك بوضع الكرتين في كفتي ميزان، ورؤية تعادلهما، ثم يُسألون إن كان شكل النقانق سوف يتعادل مع الكرة في الميزان، كما فعل عندما كان كرة.

إن حفاظ الوزن مفهوم أكثر صعوبة من حفاظ الكتلة، ويتكون عادة بعد سنة أو أكثر من مفهوم حفاظ الكتلة.

وأحد أسباب الصعوبة عند الأطفال تحت السبع سنوات في إدراك مفاهيم الحفاظ هو أن تفكيرهم مايزال محكوماً بالانطباعات البصرية، وإن التغير في مظهر كتلة المعجون يعني لهم أكثر مما تعنيه الخصائص الأقل ظهوراً كالوزن.

ويتوضح اعتمادُ الطفل الصغير على الانطباعات البصرية من خلال تجارب الحفاظ على العدد، فإن أخذنا صفين من الدراهم في كل منهما ثمانية دراهم معدنية مصفوفة على طول خط مستقيم، وكان الصّفان متقابلين، فإن طفلاً في الخامسة من عمره سيقول: إن الصفين فيهما العدد نفسه من الدراهم، لكن إذا ما ترك صف على حاله، وحشرت دراهم الصف الثاني على شكل عنقود، دون أن نزيد فيها، أو أن ننقص، والطفل ينظر، فإنه مع ذلك سيقول: إن صف الدراهم فيه دراهم أكثر مما في عنقود الدراهم، ذلك أن الانطباع البصري لصف طويل يغلب التساوي العددي، الذي كان واضحاً عندما ظهرت الدراهم في صفين متقابلين.

وعلى العكس فإن ابن السبع سنوات يفترض أنه إن كان عدد الدراهم متساوياً من قبل، فإنه يجب أن يبقى متساوياً، وفي هذا العمر تكون المساواة العددية قد أصبحت أكثر أهمية من الانطباع البصري.

وفي تجربة ثانية على حفاظ العدد، وضع بياجيه ست بيضات في ستة أقداح (كؤوس خاصة يوضع فيها البيض عادة)، وعندما سُئِل صبي في الخامسة من عمره فيما إذا كان هنالك بيض وأقداح بنفس العدد أم لا، أجاب بالإيجاب.

ثم نزعت البيضات من الأقداح وجُمِّعَت في حيز صغير، بينما تركت الأقداح في أماكنها، وهنا أصرّ الصبي على أن الأقداح أكثر من البيضات.

ثم طلب منه أن يعدّ الأقداح، وأن يعدّ البيضات، فعدّها بشكل صحيح، وكانت الأقداح ستة، والبيضات ست أيضاً، ثم أعيد عليه السؤال: هل الأقداح أكثر أم البيضات أكثر؟ أم أنهما متساويان؟ فأجاب مرة أخرى أن الأقداح أكثر من البيضات.

الطور الثالث: الطفل المُمَيِّز

(السنوات من السابعة وحتى الحادية عشرة)

وقد دعا بياجيه هذا الطور (طور العمليات العقلية المجسدة)، أي: الطور الذي يقوم فيه عقل الطفل بالعمليات العقلية المنطقية القابلة للعكس، ولكن تبقى هذه العمليات مقصورة على المفاهيم المجسدة، أو العيانية (concrete)، ويبقى الطفل المُمَيِّز عاجزاً عن إدراك المفاهيم العقلية المجردة (abstract)، من مثل "الحق" و "العدل" و "الدولة" و"الحكومة" و"الإيمان" و"الإخلاص"... الخ.

والعمليات المجسّدة تمكن الطفل المُمَيِّز من أن يقوم في عقله بما كان يقوم به بيديه عندما كان في طور الطفل المبين.

فعندما نعطي طفلاً صغيراً لعبة تركيبية مؤلفة من قطع عليه تجميعها لتؤلف شيئاً معيناً، فإنه يبدأ في تركيبها على الفور، بأن يجرب القطع مع بعضها البعض، وقد ينجح في تركيبها من خلال التجربة والخطأ، أما الطفل المُمَيِّز فإنه يتفحّص القطع، ويكتشف، ومن ثم يُقرّر ما هو الشيء الذي سيركّبه من هذه القطع، فهو يجمع القطع في ذهنه قبل أن يحاول ذلك في الواقع.

إن التفكير يسبق العمل غالباً عند الطفل المُمَيِّز ، بينما العمل يسبق التفكير غالباً عند الطفل المبين.

والعمليات العقلية تتطور ببطء وتدرّج في السنوات الخامسة والسادسة والسابعة.

والطفل المبين يبدأ بامتلاك مفاهيم الحفاظ على الكتلة والوزن والعدد خلال هذه السنوات بحيث يكون أغلب الأطفال في السنة السابعة قادرين على إدراكها.

فالطفل المُمَيِّز يتقن مفاهيم الحفاظ المتنوعة ويتقن مفهوم الزمن إلى حد كبير كما يصبح لديه فهم جيد لمفاهيم (أكثر) و (أقل) و (نفس) و (أكبر) و (أصغر)... الخ إذ صار قادراً على إدراك مفهوم (الوحدة) و (القياس)، إذ لا معنى لقياس دون وحدة قياس، وبالتالي فإن الطفل المُمَيِّز قادر على إدراك الكميات.

والطفل المُمَيِّز صار قادراً على إدراك بُعدين أو خاصتين لشيء واحد في الوقت الواحد. فالطفل الصغير المبين الذي تعرض عليه خمس خرزات خشبية بيضاء، وعشر خرزات خشبية حمراء يستطيع أن يخبرنا أن هنالك خرزات حمراء أكثر مما هنالك من خرز أبيض لكنه غير قادر على الإجابة على سؤال: (هل هناك خرزات خشبية أكثر أم خرزات حمراء؟)، فهو مازال عاجزاً عن إدراك البعدين معاً: كون الخرزة خشبية وكونها حمراء أو بيضاء في الوقت نفسه.. فهو إما أن يرى لونها أو أن يرى مادتها المكونة لها، لذا فإنه حتى في كتابة القصة للطفل المبين يتوجب أن تكون الشخصية ذات بعد واحد إما خيرة أو شريرة، لكن إن أظهر الكاتب اجتماع الخير والشر فيها، أدى ذلك إلى إرباك هذا الطفل.

أما الطفل المُمَيِّز فقد تجاوز هذه المرحلة، وصار قادراً على إدراك عدة أبعاد وخصائص للشيء في آن واحد.

وطفل في السابعة لا يجد صعوبة في الإجابة عن سؤال: (هل هناك خرزات خشبية أكثر أم خرزات حمراء) فهو يعرف أن كل الخرزات خشبية سواء البيضاء والحمراء، وبالتالي فالخشبية أكثر.

وإدراك الوحدات أمر هام جداً لدى الطفل المُمَيِّز بعد أن كان عاجزاً عنه في طور الطفل المبين.. فلو عرضت على طفل ذي أربع سنوات إنائين متماثلين فيهما كميتان متساويتان من سائل ملون، وسألته: هل العصير الذي فيهما مثلاً أكثر أم أقل؟ أم هما مثل بعضهما بعضاً؟ فإنه يعرف الجواب الصحيح، لكن لو نقلت العصير من أحد الإناءين إلى إناء طويل وضيق، وبقي العصير في الإناء الآخر القصير الواسع، فإن هذا الطفل سيقول: إن العصير الذي في الإناء الطويل الضيق

أكثر، لأنه يرى أن مستوى العصير فيه أعلى، ولا يستطيع أخذ ضيق هذا الإناء في اعتباره.

أما ابن السبع سنوات فإنه لا يجد صعوبة في ذلك، كما أنه يدرك أن كمية العصير لم تتغيّر بتغيّر شكل الإناء الذي صُبَّت فيه.

ومن جهة أخرى فإن تطوُّر القدرة على العمليات العقلية عند الطفل المُمَيِّز ، تولِّد لديه ميلاً إلى صنع القواعد، وإلى تعلمها واتباعها، سواء في لعبه مع باقي الأطفال، أو في سلوكه اليومي، على عكس الطفل المبين الذي يجد صعوبة بالغة في تعلّم القواعد، واتّباعها.

يبقى هنالك سوء فهم شائع عن التعلم خلال هذه المرحلة العمرية (طور الطفل المُمَيِّز) ذلك أنه لما كان طفل المدرسة الابتدائية قادراً على حل المشكلات في ذهنه عن طريق المعالجة الرمزية، فإنه كثيراً ما يفترض أن هذا الطفل لم يبق في حاجة إلى الأشياء كي يفكر بها.

وفي كثير من المدارس والبيوت ترى الطفل المُمَيِّز محاطاً بالكتب، والتلفزيون، والقليل من الأشياء معهما، وهذا الترتيب لبيئة هذا الطفل يفترض ضمناً أن الطفل المُمَيِّز يستطيع أن يعيش مرتاحاً في عالم من الرموز... وهذا افتراض خاطئ.

إن أطفال العمليات العقلية المجسدة يستطيعون حلّ المشكلات عقلياً، لكن يجب أن تكون تلك المشكلات مرتبطة بأشياء، وليس بمجرد رموز، إنهم يفكّرون بأعلى كفاءة عندما يفكرون بالأشياء... ومع أنهم يستخدمون عادة تعابير مجردة، لكنهم يستخدمونها مرتبطة بأشياء مجسّدة، أي: مرتبطة بأشياء لهم إليها مدخل حاسي مباشر، ولا يمكنهم التفكير، والمحاكمة العقلية بلغة رمزية خالصة قبل بلوغهم طور المراهقة، وهو طور العمليات المجردة، والتفكير الصوري حوالي السنة الثانية عشرة عادة.

الفصل الثامن

الزمن عند الأطفال

قبل الانتقال إلى الطور الرابع، وهو طور المراهقة والبلوغ العقلي، نتكلم بشيء من التفصيل على تطور مفهوم الزمن عند الأطفال، كي يتجلى لنا الإعجاز، وكيف أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، فقد أمرنا أن نعلم أولادنا الصلاة، وأن نأمرهم بأدائها عندما يبلغون سبع سنين... قال ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع». [رواه أبو داوود في سننه].

وقال ﷺ: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها» [رواه أبو داوود في سننه].

وقال أيضاً ﷺ: «علموا الصبي الصلاةَ ابنَ سبعِ سنين، واضربوه عليها ابن عشرة». [رواه الترمذي في سننه وقال عنه: حديث حسن صحيح].

والصفحات التالية عن تطور مفهوم الزمن عند الأطفال ستوضّح لنا أن الطفل لا يكون مستعدّا للالتزام بالصلاة، وهي الكتاب الموقوت قبل بلوغه سبع سنوات، حيث يبلغ عندها مفهوم الزمن لديه درجة من النضج كافية للبدء في أمره بالصلاة خمس مرات في اليوم.

فالطفل الذي لم يتكوّن لديه مفهوم واضح للزمن يعيش يومه، وكأنه يعيش في غابة بلا معالم تحدد الاتجاهات فيها، إنه يعيش فيها سعيداً لكنه كالتائه، وهكذا بالنسبة للزمن يعيش فيه، لكنه تائه، فإن أمرناه بالصلاة في أوقاتها

الخمس لم يستطع استيعاب علاقة كل صلاة بوقتها، ولم يدرك سبب اختلاف كل صلاة عن الأخرى من حيث اسمها (الفجر، الظهر، العصر، المغرب، العشاء) ومن حيث عدد ركعاتها.

إن وقت كل صلاة من الصلوات الخمس ملمحٌ أساس في إعطائها هويتها المُمَيِّزة لها.

إن إدراك الأطفال للزمن يكون في البداية غامضاً، وبعيداً عن مفهوم الكبار له.

ففي مساء يوم ميلاد أبيه قال طفل ذو أربع سنوات: "بابا، إنك لست في حاجة إلى أن تقيم أية أعياد ميلاد أخرى فقد صرت كبيراً".

فبالنسبة لهذا الطفل، ولأغلب أطفال ما قبل المدرسة، فإن الزيادة في الطول هي نفس الزيادة في العمر، ففي نظر الأطفال يكون الشخص قد بلغ عمره النهائي عندما يبلغ طوله النهائي.

كيف يتجاوز الأطفال هذه المعتقدات المبكرة عن العمر والوجوه الأخرى للمفهوم المعقد للزمن؟ لقد كان هذا موضوع أحد كتب "بياجيه".

اكتشف بياجيه أن مفهوم الزمن عند الطفل الصغير لا ينفصل بوضوح عن مفهومي المسافة والسرعة، إذ يقوم الأطفال ما قبل المدرسة بتقييم الزمن بعبارات المسافة، ويقيّمون المسافة بعبارات السرعة، ويقيّمون السرعة بعبارات الزمن. وعندما يكبر الطفل، وتتطوّر لديه قوى المحاكمة العقلية الأساس، فإنه يصل إلى المفهوم المجرد الذي لدى الكبار عن الزمن.

وكما يرى بياجيه، فإن المفهوم المجرّد للزمن يتمّ تكوينه عندما يجمع الطفل أفكاره عن السرعة وعن المسافة، ليصل إلى مفهوم عن حركة متسقة مستقلة عن الحركات المتغيرة، وعن المسافات التي تحيط به، ويزخر بها عالمه.

فالكبار يفكرون بالزمن من خلال علاقته بحركة متسقة لآلية ساعية، هي نفسها بالنسبة لجميع الساعات تبقى ثابتة في جميع أحوالنا. وإنه بسبب افتقار الأطفال الصغار لمفهوم كهذا فإنهم يستخدمون المسافة والسرعة لتقييم الزمن.

في إحدى الدراسات عُرض على أطفال ما قبل المدرسة حلزونين آليين يجريان على طاولة. أُطلق الحلزونان من المكان نفسه، وفي اللحظة نفسها، لكنهما جريا بسرعتين مختلفتين، ولمسافتين مختلفتين.

في أحد أشكال التجربة تُرك الحلزون البطيء يجري وقتاً أطول من الحلزون السريع، لكن دون أن يلحق به.

لم يجد الأطفال الصغار صعوبة في معرفة أي الحلزونين قد توقف، وأيهما ما يزال يجري.

لكن عندما توقف كلا الحلزونين وسُئِل الأطفال: أي الحلزونين وقف أولاً؟ واجه الأطفال صعوبة أكثر، وكلهم تقريباً قالوا: إن الحلزون البطيء وقف أولاً مع أنه وقف بعد السريع، وذلك لأنه لم يذهب بعيداً إلى الحدّ الذي بلغه الحلزون السريع، وكان واضحاً أن هؤلاء الأطفال يقيّمون الوقت المنفق من خلال المسافة المقطوعة (أي: أن الحلزون الذي قطع مسافة أطول استغرق وقتاً أطول في جريه، والحلزون الذي قطع مسافة أقصر استغرق وقتاً أقصر في جريه، لذا قالوا إنه هو الذي توقف أولاً رغم أنهم رأوا بأعينهم أن الذي قطع المسافة الأطول قد وقف أولاً).

يخلط الأطفال في الحقيقة ما بين الزمن والمسافة، وليس بين الكلمات (أطول وأولاً...) فقد أُعيدت عليهم الأسئلة بأكثر من طريقة للتأكد من أنهم لم يخطئوا في إجاباتهم نتيجة الخلط بين الكلمات ومعانيها... ففي التجربة السابقة نفسها قيل لهم: إن الحلزون السريع (الذي قطع مسافة أكبر لكنه وقف قبل البطيء) قد وقف للغداء، وسُئلوا إن كان الحلزون البطيء (الذي جرى وقتاً أطول لكنه قطع مسافة أقصر) قد وقف قبل أن يتوقف الحلزون السريع للغداء أم

بعده... لكنهم أصروا أن الحلزون البطيء توقف قبل أن يتوقف الحلزون السريع للغداء، لأنه توقف قبل السريع (من الناحية المكانية).

وبعبارة أخرى، فقد فكر الأطفال الصغار بوقت الغداء على أنه مكان حيث وقف الحلزون السريع، وكان في نظرهم وصول الحلزون البطيء قبل أو بعد الحلزون السريع، معتمداً على موقعه بالنسبة لمكان الغداء.

أما في عمر السابعة إلى الثامنة، فإن أغلب الأطفال يستطيعون أن يميزوا بين الوقت المستغرق والمسافة المقطوعة وبين الأوقات الثابتة (وقت الغداء مثلاً) والأماكن الثابتة (المطبخ مثلاً)، فعندما وُوْجه الأطفال من هذا العمر بمسائل مشابهة للمذكورة أعلاه، قالوا: إن الحلزون السريع قد وقف أولاً، وإن الحلزون البطيء كان متأخراً عن الغداء.

إنه في هذا العمر (7 – 8 سنوات) يكون لدى الأطفال إحساس بوجود زمن عام متسق مستقل عن السرعة والمسافة المقطوعة.

ومع أن أكثر التجارب التي أجراها بياجيه على الأطفال بخصوص الزمن كانت تركز على الزمن الساعي (أي: الزمن الذي تقيسه الساعة) فقد كان مهتماً أيضاً بمعرفة فيما إذا كانت الميول نفسها موجودة لدى الأطفال في فهمهم لزمن التقويم (الأيام، والشهور، والسنين).

وقد أجرى عدة دراسات على أفكار الأطفال عن العمر وترتيب الميلاد، التي لا بدّ فيها من بعض الفهم لزمن التقويم، وكانت النتائج عموماً مشابهة لنتائج دراساته حول زمن الساعة.

وجّه السؤال إلى الأطفال فيما إذا كانوا أسنّ (أكبر عمراً) أو أحدث (أصغر عمراً) من إخوتهم وأخواتهم.

إنه في دراسات الزمن الساعي عرف الأطفال (أي من الحلزونين قد توقف، وأي منهما ما يزال يجري) ولكن بعد توقف الاثنين عجزوا عن أي يحدّدوا أيهما توقف أولاً (أي قبل).

وفي مجال مفاهيمهم عن الأعمار وجد بياجيه وضعاً مشابهاً، فطفل ما قبل المدرسة يعلم فيما إذا كان هو أكبر سناً أو أصغر سناً من أخيه أو أخته، لكنه لا يعلم فيما إذا كان قد ولد قبل هذا الأخ أو الأخت، أو بعده أو بعدها.

وإليك – عزيزي القارئ – بعض الأمثلة من إجابات هؤلاء الأطفال.

* المثال الأول: الطفلة بام Pam عمرها أربع سنوات وستة أشهر، ولها أخت أصغر منها اسم إيريكا Erica، وبام لا تعرف يوم ميلادها.

الباحث: كم عمر إيريكا؟

فتجيب: لا أعرف.

الباحث: هل هي رضيعة Baby؟

بام: لا، إنها تستطيع المشي.

الباحث: من هي الأسنّ (أي: الأكبر سناً older) منكما؟

بام: أنا.

الباحث: لماذا؟

بام: لأنني أنا الأكبر (تقصد الأكبر حجماً Bigger).

الباحث: عندما تصبحين كبيرة (أي: في العمر) هل ستكون واحدة منكما أسنّ من الأخرى؟

بام: نعم

الباحث: أية واحدة؟

بام: لا أعرف.

الباحث: من وُلد قبلُ إيريكا أم أنتِ؟

بام: لا أعرف.

الباحث: من أحدث (أصغر سناً Younger) إيريكا أم أنتِ؟

بام: إيريكا.

الباحث: إذاً من ولد قبلُ؟

بام: لا أعرف.

*** المثال الثاني: جير Jear عمره أربع سنوات وتسعة أشهر.**

الباحث: هل لك أي إخوة؟

جير: نعم، تشارلز وإيريك.

الباحث: هل هما أسنّ (أكبر سناً) منك أم أحدث (أصغر سناً)؟

جير: هما صغيران (سنة، وثلاث سنوات).

الباحث: هل ولدتَ قبل إيريك أم بعده؟ (إيريك عمره سنة واحدة).

جير: ولدنا في الوقت نفسه ثلاثتنا ولدنا قبل المهرجان (مهرجان جنيف).

الباحث: هل هما بالعمر نفسه؟

جير: لا.

الباحث: من هو الأكبر عمراً من بينكم أنتم الثلاثة؟ ومن هو الأصغر عمراً؟

جير: إيريك.

الباحث: هل أمك أكبر سناً منك؟

جير: إنها صغيرة Young (أي شابّة).

الباحث: هل تصبح أكبر سناً شيئاً قليلاً كل عام؟

جير: لا أنا أبقى صغيراً.

الباحث: هل ستكون بالعمر نفسه في العام القادم؟

جير: لا، سوف يكون يوم ميلادي، وسوف أحصل على مزالج، سوف يصير عمري خمساً ونصف.

الباحث: هل لك جدة؟

جير: نعم، إنها أسنّ من أمي.

الباحث: هل ولدت قبل أمك أم بعدها؟

جير: لا أعرف.

الباحث: ماذا تعتقد؟

جير: لا أعرف.

الباحث: وجدّك، هل هو أسنّ من أبيك؟

جير: أجل.

الباحث: لماذا؟

جير: لأن أبي أحدث.

الباحث: من ولد قبلُ؟

جير: لا أعرف، جدي كان كبيراً (في السن old) في الحال – right away (أي على الفور ودون تأخير).

الباحث: هل أنت أسنّ من إيريك؟

جير: أجل.

الباحث: وأسن من تشارلز؟

جير: أجل.

الباحث: من هو الأسن (أي من بين ثلاثتهم)؟

جير: أنا، سأبقى حدثاً (صغيراً في العمر) وهم سيبقون كذلك.

الباحث: من كان الأول في ذهابه إلى روضة الأطفال؟

جير: أنا.

الباحث: ومن سيكون الأول في الذهاب إلى المدرسة الكبيرة؟

جير: أنا.

الباحث: ومن سيصبح رجلاً أولاً؟

جير: لا أعرف.

إننا نستطيع أن نفهم الصعوبة التي واجهها هؤلاء الأطفال، الذين يعرفون إن كانوا أسنّ، أو أحدث من إخوانهم وأخواتهم، لكنهم لا يعرفون من ولد أولاً، وذلك إذا أدركنا أنه بالنسبة للأطفال الصغار يكون وقت التقويم مكاناً مثلما هو وقت الساعة. فالطفل الصغير يعرف أنه في مكان الأسن (الأكبر سناً) أو أنه في مكان الأحدث (الأصغر سناً) لكن معرفته لذلك لا تدله على الكيفية التي ترتبط بها هذه الأمكنة بترتيب زمني.

وبالنسبة لطفل ما قبل المدرسة فإن أسن أو أحدث لا ترتبط بتقدم زمني متسق ومنطبق على كل الأشخاص.

ولن يستطيع الأطفال أن يستنتجوا من معرفة من هو أسن، ومن هو أحدث، من الذي وُلد أولاً، إلا عندما تتكون لديهم قوة المحاكمة العقلية اللازمة

لذلك، وذلك في عمر (7 – 8) سنوات، وإليك – عزيزي القارئ – أمثلة من الأعمار الأكبر.

* المثال الثالث: دُور Dour عمره سبع سنوات وخمسة أشهر.

الباحث: كم عمرك؟

دور: سبع ونصف.

الباحث: هل لك أي إخوة أو أخوات؟

دور: لا.

الباحث: أي أصدقاء.

دور: نعم، جيرالد.

الباحث: هل هو أسنّ، أم أحدث منك؟

دور: أسن قليلاً، عمره اثنتا عشرة سنة.

الباحث: بكم هو أسنّ منك؟

دور: خمس سنوات.

الباحث: هل ولد قبلك أم بعدك.

دور: لا أعرف.

الباحث: فكر في ذلك. ألم تخبرني لتوّك عن عمره؟ هل ولد قبلك أم بعدك؟

دور: إنه لم يخبرني.

الباحث: أليس هنالك طريقة لاكتشاف إن كان قد ولد قبلك أم بعدك؟

دور: يمكنني أن أسأله.

الباحث: لكن ألا تستطيع أن تعرف دون أن تسأله؟

دور: لا.

الباحث: عندما يصبح جيرالد أباً، هل سيكون أسنّ منك أم أحدث؟

دور: أسن.

الباحث: بكم؟

دور: بخمس سنوات.

الباحث: هل أنتما تُسِنّان (تكبران في العمر) بالسرعة نفسها؟

دور: نعم

الباحث: عندما تصبح أنت رجلاً كبيراً ماذا سيكون هو؟

دور: جدّاً.

الباحث: هل سيكون في عمرك نفسه؟

دور: لا، سأكون أحدث منه بخمس سنوات.

الباحث: وعندما تصبح أنت رجلاً مسناً جداً هل سيبقى الفرق نفسه؟

دور: نعم، دوماً.

* المثال الرابع: جِسْت Jest عمرها تسع سنوات، ولها أخت أحدث منها.

الباحث: كم عمر أختك؟

جست: سيكون عمرها سبع سنوات في الثامن من يناير (كانون الثاني).

الباحث: بكم سنة هي أحدث منك؟

جست: بسنتين.

الباحث: عندما تصبحين سيدة كبيرة، هل ستكون في العمر نفسه مثلك؟

جست: لا، إنها دوماً ستكون أحدث مني.

الباحث: بكم؟

جست: بسنتين.

الباحث: هل أنت متأكدة تماماً؟

جست: بواحد وعشرين شهراً. (الجواب صحيح).

الباحث: لماذا؟

جست: لأن الحال ستكون مثل اليوم.

الباحث: وعندما تصبحين مسنة جداً.

جست: الحال سيبقى دوماً كما هو.

الباحث: حسناً، أخبريني إذاً من منكما ولد قبل؟

جست: لا أعرف.

لقد قام بياجيه ببعض الدراسات الإضافية كي يُظهر عمومية هذا الميل عند الأطفال الصغار إلى التفكير بالعمر كمكان يشير إليه الحجم.

وفي واحدة من هذه الاختبارات أُرِيَ الأطفال صورة لشجرتين، واحدة طويلة ونحيفة، والثانية قصيرة وثخينة. وبينما كان الأطفال ينظرون إلى الشجرتين وُجّه لهم السؤال عن أي الشجرتين أسن وأيهما أحدث، وكانت النتائج متسقة، فكل الأطفال الصغار قالوا: إن الشجرة الطويلة هي الشجرة الأسن،

وهكذا كانت النتائج مع الأطفال الصغار مماثلة لنتائج اختبار الحلزون، حيث اعتبروا الذي قطع مسافة أطول هو الذي سار مدة أطول.

لكن الأطفال من عمر (7 – 8) سنوات يتجاوزون هذا الخلط بين الزمن من جهة والمكان والحجم من جهة أخرى، ويبدؤون بإدراك الزمن كحركة عامة متسقة منتظمة.

والآن إلى المزيد من الأمثلة من إجابات الأطفال.

* المثال الخامس: روه Roh (أربع سنوات وستة أشهر).

الباحث: أي من هاتين الشجرتين أسن من الأخرى؟

روه: أجل، الطويلة.

الباحث: لماذا؟

روه: لأنها طويلة.

الباحث: أظن أنه ربما كان العكس.

روه: لا أعرف، لكنني أقول إنها الشجرة الأطول.

الباحث: هل يمكن لشجرة صغيرة الحجم أن تكون أسن من شجرة كبيرة الحجم؟

روه: أوه، لا، لا (بنبرة من يقول: لا تخدعني).

* المثال السادس: زُور Zur (أربع سنوات وخمسة أشهر).

الباحث: أي من هاتين الشجرتين أسن من الأخرى؟

زور: تلك عمرها (5.5) والثانية (4.5).

الباحث: لماذا؟

زور: لأنها أكبر (أي: أكبر حجماً)

الباحث: ألا يمكن للواحد أن يكون أسن مع أنه أصغر (حجماً)؟

زور: بلى.

الباحث: في هذه الحالة، ألا يمكن للشجرة الأكبر أن تكون الأحدث؟

زور: لا.

*** المثال السابع: لي Lea (أربع سنوات وستة أشهر).**

الباحث: أي من هاتين الشجرتين أسن من الأخرى؟

لي: الشجرة الثخينة عمرها سنة واحدة، والطويلة عمرها سنتان.

الباحث: هل أنت متأكدة؟

لي: أجل.

الباحث: ألا يمكن للواحد أن يكون أكبر (حجماً) ومع ذلك أحدث (أصغر عمراً) من غيره؟

لي: إن ذلك لا يحدث أبداً.

*** المثال الثامن: جِل Gil (سبع سنوات وخمسة أشهر).**

الباحث: أي من هاتين الشجرتين أسن من الأخرى؟

جل: هذه لا بد أنها أسن لأنها أكبر.

الباحث: كيف عرفت؟

جل: من الحجم، لكن ربما كنت مخطئة لأن بعض الأشجار الكبيرة حَدَثَة (صغيرة في العمر)، إن الأشجار لا تنمو كلها بالطريقة نفسها.

الباحث: هل يمكن أن تكونا من العمر نفسه؟

جل: أجل يمكن، ربما نمت واحدة بالطول بينما نمت الثانية بالعرض. ولا يمكن للمرء أن يعرف، هناك أنواع عديدة من الشجر ولا يمكن للمرء أن يعرف.

الباحث: من الذي يمكنه أن يعرف؟

جل: الرجل الذي غرسهما؟

*** المثال التاسع: دار Dar (سبع سنوات وستة أشهر).**

الباحث: أي من هاتين الشجرتين أسن من الأخرى؟

دار: ربما كانتا من العمر نفسه، لأن واحدة ثخينة والثانية طويلة.

الباحث: ما رأيك؟

دار: ربما كانت الطويلة أسن، لكن ذلك مجرد تخمين، على المرء أن يعرف متى غُرستا.

*** المثال العاشر: بير Bir (8 سنوات).**

الباحث: أي من هاتين الشجرتين أسن من الأخرى؟

بير: ربما كانت الكبيرة هي الأسن، لكن ذلك ليس أكيداً لأن الأشجار الكبيرة قد تكون مسنّة أو حَدَثَة.

الباحث: إذاً؟

بير: يجب أن نعرف متى غُرستا.

*** المثال الحادي عشر: إد Ed (9 سنوات).**

الباحث: أي من هاتين الشجرتين أسن من الأخرى؟

إد: لا يمكن للمرء أن يعرف، لأن شجر الطّقسوس ينمو ببطء، وشجر الليمون الحامض ينمو بسرعة.

هذه النتائج ترينا أن المفاهيم العملية لزمن التقويم (الأشهر والسنين) يتم الوصول إليها في العمر نفسه الذي يتم الوصول فيه إلى المفاهيم العملية للزمن الساعي (الدقائق والساعات).

وهذا ليس مستغرباً، لأن كلا الزمنين يلزم لإدراكهما مفهوم لسرعة متسقة منتظمة، والطفل يصل إلى هذا المفهوم عندما يستطيع أن يفكر بالزمن على أنه ذاك الذي يبقى نفسه عندما نقارن السرعات المختلفة والمسافات المختلفة.

والذي يجب ذكره أنه بينما يملك الطفل في عمر 7 – 8 سنوات مفهوماً عملياً للزمن فإنه ما زال يفتقر إلى إدراك حقيقي للزمن التاريخي والزمن المستقبلي اللذين يستلزمان المزيد من النضج الذكائي لإدراكهما.

وعادة لا يقدر الأطفال على التخطيط المستقبلي بعيد المدى أو على الوصول إلى منظور تاريخي حقيقي قبل أن يبلغوا سن المراهقة.

إن ما اكتشفه بياجيه من وجود خلط عند الأطفال الصغار بين الأوقات والأماكن قد يعيننا على فهم وتفسير بعض التواني الذي يمارسه الأطفال الصغار عند وقت العشاء، أو وقت النوم وما شابه.

ولعلّ مقاومة الأطفال للاستجابة لأوامر والديهم في تلك الأوقات تعكس الاعتقاد لديهم أن وقت العشاء ووقت النوم مكانان لا يصلان ما دمت لم تصل إليهما.

وقد يفسّر هذا ما يلاحظ عادة أنه حتى الأطفال الذين يحتجّون بشدة على المجيء إلى مائدة العشاء، أو الذهاب إلى السرير يتوقفون عن احتجاجهم حالما يوضعون على كرسي المائدة أو في سريرهم.

وعلى ما يبدو فإن هؤلاء الأطفال الصغار يظنون أن وقت العشاء هو فقط عندما تكون جالساً إلى مائدة العشاء، وأن وقت النوم هو فقط عندما تكون في السرير.

إن فهم هذه الطريقة في النظر إلى الأمور قد يساعد الوالدين على أن يكونوا أكثر تسامحاً مع تصرّفات أطفالهم الصغار.

إن لمكتشفات بياجيه هذه تضمّنات تربوية، فعموماً يتمّ تعليم مفاهيم الزمن والمسافة والفراغ أبكر بكثير من السرعة، وهذا يعكس اعتقاداً بأن مفهومي الزمن والمسافة مفهومان أوليان وأساسيان، بينما مفهوم السرعة مفهوم ثانوي ومشتق منهما.

لكن ما أظهره بياجيه هو أن مفهوم السرعة مفهوم أولي وأساسي مثلما هما مفهوم الزمن ومفهوم المسافة. وبمقتضى ذلك فإن أعمال بياجيه تقترح أن فهم مفاهيم الزمن والمسافة والسرعة قد يتقوى كثيراً لو تم تعليمها مجتمعة لا متعاقبة.

والجدير بالذكر أنّ تعليم مفهوم السرعة مع مفهوم الزمن ومفهوم المسافة لن يُسرّع سيطرة الطفل على هذه المفاهيم، إنما سيجعل سيطرة الطفل عليها أقوى وأصلب.

إن خلط مفاهيم الزمن والمكان مرحلة طبيعية في تطوّر هذين المفهومين عند الطفل لا يمكن تخطيها، وهذا ينطبق على الأطفال في جميع أنحاء العالم.

******



الفصل التاسع

طور المراهقة

(من السنة الثانية عشرة حتى السنة التاسعة عشرة)

وهو طور يتم فيه النضج العقلي والانفعالي للطفل بشكل تدريجي، حتى يصبح مثل الكبار الراشدين من النواحي الجسدية والنفسية.

ويتحقق أكبر قدر من هذا النضج خلال السنوات الثانية عشرة حتى الخامسة عشرة، وبعدها يكتسب هذا الإنسان البالغ الجديد – وبالتدريج أيضاً – مزيداً من الحكمة وبعد النظر.

وعندما تبلغ حكمته، وبعد نظره مستوىً جيداً، يكون قد صار راشداً، وبلغ سن الرشد.

لذا لم يكن البلوغ العقلي والانفعالي الذي يرافق، ويتزامن مع البلوغ الجنسي كافياً لأن نعطي اليتيم أمواله، يتصرف بها كيف يشاء، مع أنه ببلوغه قد صار محاسباً ومكلفاً، ولم يبق القلم مرفوعاً عنه كما كان في طفولته. قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6].

ولعل من أهم مظاهر النضج العقلي – الذي يتم عادة خلال السنوات الثانية عشرة حتى الخامسة عشرة – نمو قدرة المراهق على إدراك المفاهيم المجردة، التي كان عاجزاً عن إدراكها قبل ذلك.

والمفاهيم المجردة هي المفاهيم التي تجردت عن المجسدات والمحسوسات، والتي تدلّ على أشياء لا يمكن إدراكها بالحواس، إنما إدراكها عقلي بحت.

فلو تأملنا مفهوم الحرية الذي نفهمه – نحن الكبار – بسهولة، لوجدنا أن الحرية شيء تدركه عقولنا، لكننا لا نستطيع تخيلها، أو تصورها كما نتصور البحر، أو الشجر، أو الطعام، أو المشي، أو اللعب، أو غير ذلك من أشياء قابلة للإدراك بالحواس.

والطفل قبل مرحلة المراهقة يستطيع أن يفهم كلمة "أنا حرّ" فهماً جزئياً، لأنه على الفور يتخيل لها معنىً مجسداً في سلوك أو موقف. "أنا حر" قد تعني له أنه يستطيع أن يلعب متى شاء مثلاً، أو أنه يستطيع أن يحتفظ بأشيائه لنفسه دون أن يسمح لأخيه أن يستعملها أو ما شابه من أمثلة.

أما مفهوم "الحرية" بمعناها الواسع، الذي لا نحتاج نحن الكبار إلى حصره ببعض المواقف، إنما نفهمه على أنه شيء شامل، وعلى أنه المعنى المشترك بين جميع الحالات، التي تتجسد فيها حرية الإنسان، والتي يمكن للإنسان أن يتصورها (حرية في الحياة اليومية، حرية سياسية، حرية فكرية، حرية من العادات، حرية من القوانين، حرية من المعيقات كلها، .... الخ).

هذا المفهوم لا يستطيع الطفل المُمَيِّز في مرحلة ما قبل المراهقة إدراكه كما يدركه البالغون. وهكذا الحال بالنسبة للمفاهيم المجردة كلها. فالطفل المُمَيِّز لا يدرك مفهوم الإيمان، أو العدل، أو المساواة، أو الطاعة، أو الإخلاص، أو الكبر، أو الاستعلاء، أو الكرم، أو العلم، أو .... لا يدرك أمثال هذه المفاهيم بالعمق، والشمول الذي يدركها به البالغون، إنما هي دائماً أمثلة مجسدة في أفعال، أو أشياء يرى فيها الطفل جانباً من تلك المفاهيم، فيرى العدل في تقسيم أمه للحلوى بينه وبين أخته بالتساوي مثلاً، أو في غير ذلك من مواقف. لكن العدل كمفهوم مجرد عن الأمثلة، وبالتالي شامل لكل مثال، يمكن لعقل الإنسان

أن يتصوره، هذا المفهوم المجرد الشامل ما يزال فوق قدرة الطفل المُمَيِّز على الإدراك العقلي، وهكذا الحال بالنسبة للمفاهيم المجردة الأخرى.

وعجز الطفل قبل مرحلة المراهقة عن إدراك المفاهيم المجردة، أمر يجب الانتباه إليه جيداً عند مخاطبة الأطفال، سواء عند التحدث معهم، أو التأليف لهم شعراً أو نثراً، أو وضع الحوار لأفلامهم وتمثلياتهم، إذ عندما يحتوي خطابنا الموجه إليهم على مفاهيم مجردة، فهذا يعني أن رسالتنا التي أردنا أن نبلغهم إياها لن تصلهم، وربما كان لها أثر سلبي من حيث إشعارهم بالغموض في خطابنا لهم، والغموض يقلل الاهتمام والرغبة في الخطاب، ويولد في نفوسهم النفور منه، إذ الطفل يزعجه الغموض في أي شيء ويرتاح إلى الوضوح، والحدود القاطعة بين الأشياء.

وقبيل مرحلة المراهقة تبدأ القدرة على فهم المجردات بالظهور.. لذا قد نجد طفلاً في العاشرة، أو الحادية عشرة من عمره، يدرك إدراكاً لا بأس به بعض المفاهيم المجردة، لكن بلوغه مستوى الفهم الذي عند الكبار، يحتاج إلى عدة سنوات حتى يتم ويكتمل.

ومع نمو قدرة المراهق على فهم المفاهيم المجردة، تنمو لديه أيضاً القدرة على إدراك الممكنات العقلية، أي: إدراك الاحتمالات الممكنة، والأحوال، والصور، والأشكال؛ التي يمكن لأي شيء أن يتخذها متحرراً من الواقع أمامنا .

فالمراهق يستطيع أن يتخيل كيف يمكن لأي شيء أمامه أن يكون على غير الحال التي هو عليها، إذ يمكنه مثلاً أن يتخيل الأشكال الأخرى التي يمكن لمنزله أن يأخذها، أو التي يمكن أن يُعاد ترتيب الأثاث في منزله بحسبها.

صحيح أن الطفل المُمَيِّز يستطيع فهم، وتخيل الاحتمالات التي يبينها له الكبار، ويحدثوه عن إمكان حدوثها، لكنه عاجز عن أن يقوم هو باستنتاج هذه الاحتمالات كلها وحده، وإن كان يمكن له من خلال التجربة أن يهتدي لبعضها.

فعلى سبيل المثال: لو أننا طلبنا منه أن يعطينا الأرقام التي يمكن تشكيلها من الأعداد (9،7،3) مثلاً، فإن الطفل المُمَيِّز قد يتمكن من إعطاء بعض الاحتمالات من خلال التجريب، لكن المراهق يستطيع حصر جميع الاحتمالات الممكنة، إذ يستنتجها بطريقة منهجية فيبدأ بأخذ كل عدد على حدة، ويكون الأرقام (3) و (7) و (9)، ثم يأخذ كل عددين مجتمعين، ويكون الأرقام (73) (37) (93) (39) (79) (97)، ثم يأخذ الأعداد الثلاثة مجتمعة، ويكون الأرقام (973) (793) (937) (397) (379) (739).

إن قدرة المراهق البالغ على إدراك المفاهيم المجردة، وقدرته على إدراك الاحتمالات الممكنة غير القائمة في الواقع، تمكنانه من إدراك (الأمثل) من كل شيء بحسب علمه ومعرفته، فهو يتخيل مثلاً كيف يمكن أن تكون الأسرة المثلى، وكيف يمكن أن يكون المجتمع الأمثل، أو نظام الحكم الأمثل، والمقصود بالأمثل: أي المثالي الخالي من العيوب.

وهذه القدرة على إدراك الأمثل من كل شيء تجعل المراهق البالغ قادراً، وميالاً إلى نقد ما يراه في الواقع؛ الذي يكون دون المستوى المثالي عادة، فيصبح المراهق قادراً على رؤية العيوب فيما حوله، وفيمن حوله، وبخاصة في الكبار كوالديه ومعلميه، ممن لم يكن يخطر بباله يوماً أن ينتقدهم، أو أن يقارنهم بغيرهم (كوالدي أصدقائه مثلاً) اللهم إلا مقارنة سطحية وعلى مستوى مادي بحت (طولهم، وزنهم، قوتهم، العضلية، لون بشرتهم).

أما المراهق فإنه يقارن، ويحلم بالأحسن والأمثل في كل شيء بما في ذلك والديه.

إن نمو قدرة المراهق على رؤية عيوب والديه، وعلى تخيل كيف لهما أن يكونا أحسن، وأقرب إلى المثالية، بالإضافة إلى ثقته بنفسه، وإحساسه بذاته، الشيء الذي ينتج عن إدراكه لنمو قدراته العقلية، كل ذلك يجعله لا يتقبل من الكبار تقبلاً لا نقد فيه، كما كان يفعل عندما كان طفلاً مميزاً في المدرسة

الابتدائية، إنه الآن يريد أن يفكر لنفسه، وأن يقرر لنفسه، وأن يكون له رأيه الخاص، وقناعته الخاصة التي يصل إليها بتفكيره، ومحاكمته للأمور.

وهذا يولد لديه نزعة استقلالية قوية في المجال الفكري، ومجال اتخاذ القرارات، وتكوين القناعات، تشبه نزعات الطفل للاستقلالية في السنتين الثانية والثالثة من العمر، حيث ينزع إلى الاستقلالية في مجال الإرادات، والأفعال التي يصر على أن يقوم بها بنفسه، فهو يريد أن يأكل بنفسه، وأن يلبس بنفسه، وأن يفتح الباب بنفسه، وأن يُشغل لعبته بنفسه . . .

لقد اكتشف أنه صار ماهراً، وقادراً على فعل هذه الأشياء، واكتشف أيضاً أن له إرادة خاصة به يجب أن يمارسها، وهكذا حال المراهق الذي يكتشف أنه صار قادراً على فهم جميع ما يفهمه الكبار، وعلى التفكير مثلهم، فهو ينزع إلى الاستقلالية الفكرية، إضافة إلى الاستقلالية في الإرادة، والفعل، كما ينزع إلى الحرص على التفكير لنفسه، فتنشأ لديه أنفةٌ من الاتباعية والتسليم للكبار، كما كان قبل البلوغ (في المدرسة الابتدائية).

إن هذه النزعة القوية إلى الاستقلالية، وهذا النفور من الاتباع للآباء، والأمهات في مجال الفكر والاعتقاد، يولدان لديه دافعاً نفسياً قوياً لأن يختار لنفسه العقائد، والأفكار، والاتجاهات السياسية، والفلسفية، والدينية،... إنها تحرره من تقليد الآباء والأمهات، وتجعل اتخاذه لقراره النابع من نفسه مطلباً لا يتنازل عنه، وذلك كي يشعر بكيانه الخاص، وشخصيته، وذاتيته.

إن المراهقة تمثل مرحلة تحرر من الآبائية؛ التي يتعذر بها المشركون الرافضون للهداية الربانية: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف:22-24].

لذا كان المراهقون والمراهقات خير من تُوَجَّه إليهم الدعوات الجديدة، وقد فطن الماركسيون قديماً لذلك واستغلوه في نشر دعوتهم.

وقدرة المراهق على إدراك المفاهيم المجردة، والاحتمالات المثلى من كل شيء، ونزعته إلى الاستقلالية العقلية (في مجال الفكر والاعتقاد) تجعله يختار ما يؤمن به من عقائد دينية، ويختار ما يؤمن به من قيم خُلُقية، وبالتالي تصبح المثل، والقيم جزءاً مما يفكر به، وهذا يؤدي إلى نضج خُلُقي لديه، حيث ينتقل من مرحلة الالتزام الخُلُقي المدفوع بالخوف من استنكار الآخرين لأي فعل يقوم به، وبالخوف من غضبهم منه، وعقوبتهم له، إلى مرحلة الالتزام الخلقي القائم على الإيمان بالمثل، والمبادئ، والقيم الأخلاقية، حيث يؤمن هو بها، ويحاول أن يحيا وفقها.

ويقول علماء النفس: إن المراهق يكون بذلك قد جَوّن القيم والمثل، أي: جعلها جُوّانية بالنسبة له (Internalized) وبذلك صار ضميره ذاتياً، وداخلياً، بعد أن كان ضميره خارجياً، قائماً على الخوف من العقوبة، والخوف من استنكار الآخرين، وهي عوامل خارجية بالنسبة له، بخلاف القناعة الذاتية، والإيمان، التي هي عوامل داخلية جوانية.

ومن الجوانب الهامة الأخرى للنضج العقلي، التي تتحقق للإنسان في مرحلة المراهقة: قدرته على إدراك الزمن التاريخي، والزمن المستقبلي البعيد، فالطفل المُمَيِّز في عمر ال7 سنوات مثلاً يدرك بشكل لا بأس به الزمن الساعي، أي يستطيع أن يتصور يوماً كاملاً من بدايته إلى نهايته، ومع تقدمه بالعمر يستطيع أن يتصور الأسبوع، ثم ما هو أطول من الأسبوع كالشهر، والسنة، لكن كلما كانت المدة أطول، كان إدراكها، وتصورها أصعب عليه، فابن التسع سنوات قد يدرك الشهر، أوحتى السنة بسهولة، لكن إدراك القرن، أو الألف، أو المليون من السنين يكون عليه صعباً كثيراً، أو ربما غير ممكن على الإطلاق، فكيف يكون إدراكه للخلود، وهو زمن لا نهائي؟!

إن مفهوم اللانهاية مفهوم لا يدركه الطفل المُمَيِّز، إنما يحتاج إلى البلوغ العقلي لإدراكه، ومثله الزمن التاريخي حيث يقاس بمئات وآلاف، وربما بملايين السنين.

هذا الزمن لا يستطيع الإنسان أن يدركه، أو أن يتصوره ما لم يصل إلى المراهقة، وإلى البلوغ العقلي.

وقدرة المراهق على إدراك الزمن التاريخي من جهة، والزمن المستقبلي البعيد من جهة أخرى، تجعله يبحث في أسئلة من قبيل: ما أصل الحياة؟ ومن أوجدها؟ وما هي النهاية؟ وإلى أين نسير في هذا الوجود؟ وما شابه ذلك من تساؤلات.

كما تجعله قدرته هذه على إدراك الزمن البعيد، قادراً على التخطيط للمستقبل، بحيث يستكثر من الخير، ويسعى إلى تحقيق ما يختاره من أهداف حياتية على مستوى الأيام القادمة، والشهور المقبلة، والسنين الآتية، ثم الحياة الآخرة بعد الموت.

إن كل ما ذكرناه من جوانب النضج العقلي، و الانفعالي، التي تتحقق للمراهق، بالإضافة إلى تحرره من المسؤولية (مسؤوليته عن أسرة، أو مسؤوليته عن ثروة يريد الحفاظ عليها، أو جاه، أو سلطة لا يريد المخاطرة بها)، تلك المسئوليات التي تؤثر على الكبار عادة عندما يتخذون قراراتهم، كل ذلك يجعل المراهق البالغ في وضع ممتاز ليختار (أيكفر أم يشكر؟)، (أيؤمن أم يلحد؟).

لقد صار قادراً على الإيمان أو الكفر، وصار متحرراً نفسياً من اتباع الكبار، ولم يتكون لديه بعد من المخاوف، أو المطامع الدنيوية ما يؤثر على حريته في القرار، ولو على المستوى القلبي بينه وبين ربه.

وهذا يرينا بوضوح: أن اعتبار البلوغ الجنسي الذي يترافق مع البلوغ العقلي في الغالبية العظمى من الحالات الطبيعية، اعتباره بداية للتكليف

والمحاسبة، لم يكن أمراً اعتباطياً حدده رجل أمي، أي: النبي ﷺ، إنما كان وحياً من اللطيف الخبير الذي يعلم من خلق.

قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الغلام حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق». [رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والنسائي وابن ماجه].

وعن نافع، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «عرضني رسول الله يوم أُحُد في القتال وأنا ابن أربع عشرة سنة، فلم يُجزْني، وعرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة، فأجازني. قال نافع: فقدمت على عمر بن عبد العزيز - وهو يومئذ خليفة - فحدثته هذا الحديث، فقال: إن هذا لحدٌّ بين الصغير والكبير، فكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن كان ابن خمسة عشرة سنة، ومن كان دون ذلك فاجعلوه في العيال» [انظر مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه للباغندي].

لكن مع ذلك، يبقى بعد البلوغ مجال لمزيد من النضج العقلي، والانفعالي عند الإنسان، ذلك النضج الذي يصل به إلى مرحلة الرشد، الذي تنتهي ببلوغه مرحلة المراهقة، ويبلغه أكثر المراهقين والمراهقات في حدود الثامنة عشر إلى العشرين سنة من العمر.

ونقص الرشد لدى المراهقين يفسر لنا لم يصطدم المراهقون مع الكبار، حين لا يرى المراهقون الأوضاع والأشياء من حولهم مثالية كما يحبون، ولم لا يلتمسون للكبار الأعذار في تقصيرهم عن مستوى المثالي في كل شيء، إذ ما يزال المراهق؛ الذي لم يبلغ الرشد، غير قادر على إدراك الجهد، والدأب، والمجاهدة النفسية، وأهمية الظروف المواتية اللازمة لتحقيق المثل كاملة في حياة البشر، فالمراهق عاشق للمثل، لكنه قليل الخبرة بالواقع، وبالعوائق أمام تحقيق هذه المثل.

فعلى الرغم من حديث المراهق عن المثل، وانتقاده للكبار، فإنه هو عادة لا يحقق في سلوكه هذه المثل بالقدر الذي يتحدث عنه، ويبقى للأهواء ضغطها على نفسه، كما يبقى أثر الخبرات النفسية التي مر بها خلال طفولته كلها واضحاً فيه، وهذا لا يقلل من قيمة ما يقوله المراهق حول المثل والقيم.

ويجب علينا أن ننتبه إلى أهمية التربية السليمة، - التي هي أكثر بكثير من الوعظ والتلقين للمعلومات-، أهميتها في إكساب المراهق القدرة على أن يعيش وفق القيم، والمثل، وعلى مستوى الإيمان الذي يتحمس له في أقواله، أي أهمية التربية في إكساب المراهق القدرة على الالتزام، والعمل، ذلك أن الأخطاء، والخبرات التربوية السيئة تؤثر في بناء شخصيته، وتجعله أضعف أمام أهوائه، وبالتالي توسع الفجوة بين ما يقول وما يفعل.

والرشد الذي يبلغه الإنسان مع الثامنة عشرة، أو التاسعة عشرة أو بعدها بقليل، ليس كل الرشد الذي يصل إليه الإنسان عادة، إنما هو الحد الأدنى من الرشد؛ الذي يؤهله للتصرف بماله، وماشابه من شؤون الحياة، لكن الرشد، والنضج النفسي يستمران، ولعله يبلغ مداه في عمر الأربعين سنة .

قال تعالى عن الإنسان: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف:15].

ولعله لهذا كان عمر أربعين سنة هو العمر الذي بدأت فيه نبوة أكثر الأنبياء، ولعله لهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾[النساء: 6] عندما تحدث عن إطلاق يد اليتيم في ماله. وآنس تعني أبصر ورأى وتنكير (رشداً) يوحي أن القليل من الرشد يكفي لدفع مال اليتيم إليه.

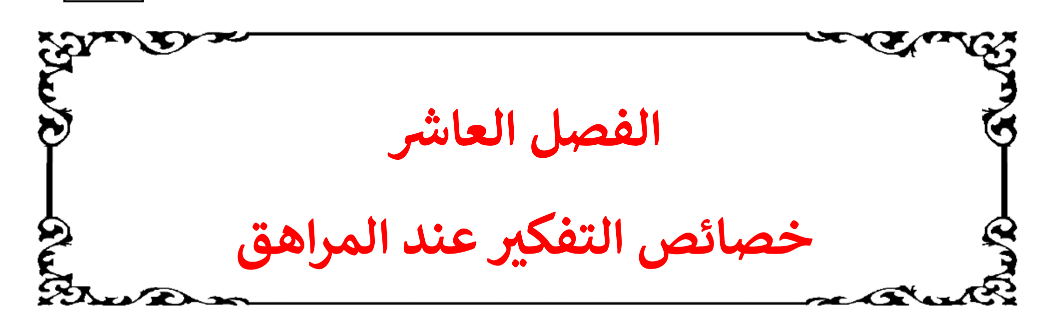
وعودة إلى القدرات العقلية التي تتحقق للإنسان في سن المراهقة، أذكرك أيها القارىء الكريم بالأهمية الكبرى لمعرفتنا لهذه القدرات، وذلك لتحقيق

التواصل، والتفاهم الناجح مع أولادنا المراهقين والمراهقات من جهة، ومع أطفالنا الذين لم يبلغوا سن المراهقة، ولم يمتلكوا تلك القدرات العقلية بعد.

ذلك أن أكبر عيب في خطابنا الموجه إلى أطفالنا في سن التمييز، أي: المرحلة الابتدائية، هو أننا نخاطبهم بما هو فوق قدرتهم على الإدراك، والاستيعاب، فما أكثر ما نخاطبهم بما نخاطب به الكبار، مخدوعين بقدرتهم على حفظ بعض المفردات وترديدها، فنظن أنهم قد استوعبوا، وأدركوا المفاهيم التي تدل عليها تلك المفردات، مع أنه من الثابت علمياً الآن أن الطفل دون العاشرة نادراً ما يفهم المفاهيم المجردة ، وأنه بعد العاشرة يبدأ في إدراكها، ويتحسن إدراكه لها بالتدريج، حتى يبلغ حداً لا بأس به في الثانية عشرة من عمر، وحتى يبلغ مبلغ الكبار في إدراكه لها في الخامسة عشرة من عمره، إلا إن كان ذكائه دون الطبيعي، فقد لا يتمكن من إدراكها مهما بلغ من العمر.

والذي يتتبع ما يخاطب به الأطفال في الكتب، والقصص، والقصائد، والتمثيليات، وفي قاعات الدرس، وغير ذلك، يمكنه أن يلاحظ مقدار الخلل في هذا الخطاب، فلنستفد مما اكتشفه علماء النفس المعاصرون، كي نخاطب أطفالنا ومراهقينا على قدر عقولهم، ونتمكن من الوصول إلى تلك العقول برسائلنا المفصلة على قدر عقولهم، والمركبة، بحيث يستطيعون هضمها، وتمثّلها، والاستفادة منها، فلا يكون خطابنا لهم صيحة في فراغ.

ولما لفهم مرحلة المرهقة من الناحية المعرفية من أهمية، فقد رأيت أن أعود لأفصّل بعض ما أجملت في الصفحات السابقة حول تفكير المراهق، وقدراته العقلية، وما ينتج عن ذلك من تغير في سلوكه، إذ أننا عندما نفهم كيف يفكر أولادنا المراهقون ذكوراً وإناثاً، فإننا نستطيع التعامل معهم بشكل أفضل، وأنجح.



الفصل العاشر

خصائص التفكير عند المراهق

1- القدرة على التفكير الصوري (Formal Thinking)

يغلب على تفكير الطفل المبين أن يكون تفكيراً حدسياً أي لاشعورياً، أما الطفل المُمَيِّز فيأخذ في السنة السادسة من عمره، أو قبلها بقليل باستخدام المنطق العقلي الواعي غير الحدسي، ويوماً بعد يوم يزداد إتقان الطفل المُمَيِّز للتفكير المنطقي، ويصبح على سبيل المثال قادراُ على القيام بالقياس المنطقي (Syllogism) الذي يتم فيه الوصول إلى نتيجة ما استناداً إلى مقدمتين، وذلك على غرار المثال التالي المشهور في علم المنطق:

- المقدمة الأولى: كل إنسان فانٍ.
- المقدمة الثانية: سقراط إنسان.
- النتيجة: إذاً سقراط فانٍ.

لكن الطفل المُمَيِّز يبقى أسير الواقع في تفكيره، وغير قادر على التجرد عنه إلى عالم الافتراض، إنه يستخدم المنطق، لكنه يستخدمه، ويطبقه على ما هو محسوس، وملموس، سواء كان ذلك الإحساس مباشراً عن طريق حواسه المختلفة، أو كان غير مباشر عن طريق التخيل، والتصوّر.

ثم في أواخر سن التمييز، وبالتدريج تتكون لديه بدايات القدرة على التفكير الفرضي الاستنتاجي، فيصبح قادراً على افتراض أمر ما لا وجود له في الواقع، ثم يستنتج منه منطقياً ما ينتج عنه كما لو كان موجوداً في الواقع.

أما قبل هذه المرحلة فإن هذا الطفل يجد صعوبة في أن يفترض ما هو خلاف الواقع الذي يعرفه، فلو قلنا لطفل في الثامنة من عمره مثلاً: (لنفترض أن الحليب أسود)، فإنه سيعترض ويجيبنا: (لكن الحليب أبيض)، أما المراهق فقادر على افتراض ما هو خلاف الواقع، وقادر على إعمال فكره وتطبيق المنطق على هذا الافتراض، وعلى الاستنتاج بطريقة سليمة، بغض النظر عن كون الأمر الذي افترضه حقيقياً أو غير حقيقي.

لقد استطاع المراهق أن يجرد نشاطه العقلي عن الواقع المحسوس وأصبح قادراً على ممارسة هذا النشاط المنطقي على موضوعات، وأشياء افتراضية ليس لها وجود حقيقي؛ لذا يدعى هذا النوع من التفكير : (التفكير المجرد abstract thinking) ويدعى أيضاً (التفكير الصوري، أو الشكلي Formal Thinking) حيث تتجلى القدرة على التفكير المنطقي في عملية التفكير نفسها، وفي الاستنتاج المنطقي السليم، وإدراك العلاقات، على الرغم من أن موضوعات التفكير قد تكون أشياء مفترضة، لا وجود لها في الحقيقة، أو أشياء مجردة غير قابلة للتجسيد في صورة عقلية، كأن تكون رموزاً لرموز أخرى. فمثلاً يستطيع المراهق أن يتعلم الجبر، وما فيه من معادلات رياضية تستخدم رموزاً مثل: (س) و (ص) ترمز إلى الأعداد (1) (2) (3) التي هي في الأصل رموز للأشياء أما الأطفال المميزون فلا يمكنهم التفكير بهذا المستوى من التجريد العقلي، وحتى عندما يحل طفل في المرحلة الابتدائية معادلة بسيطة مثل (س+4=8) ويصل إلى قيمة (س) على أنه شيء محدد، ومجسد، لا على أنه يمكن أن يكون أي رقم. وهذا النوع من المعادلات يشبه الجبر، لكنه لا يحتاج إلى التفكير المجرد؛ الذي يحتاج إليه الجبر؛ ولذلك فإن الطفل قبل مرحلة المراهقة لا يستطيع التعامل مع معادلات متزامنة ذات مجهولين، أو ثلاثة مجاهيل.

ومثل الجبر علم المثلثات، والتكامل ، والتفاضل، وما شابه، كلها لا بد لها من الانتظار إلى المرحلة الإعدادية، والثانوية لتدريسها، حيث تكون قدرة الإنسان على التفكير المجرد قد بلغت مستوى يمكنه من التفكير برموز الرموز.

والأطفال في طور التمييز (في المرحلة الابتدائية) يستخدمون تعابير مجردة، يستخدمونها مرتبطة بأشياء مجسدة، أي بأشياء موجودة في الواقع، يمكنهم رؤيتها، أو تخيلها، أو إدراكها بحواس أخرى، لكنهم عاجزون عن التفكير، والمحاكمة العقلية بلغة رمزية خالصة حتى يبلغوا طور العمليات المجردة حوالي السنة الثانية عشرة من العمر.

إن قدرة المراهق على التفكير المنطقي في أشياء مفترضة، وعلى القيام بالاستنتاج من هذه الافتراضات، هي التي تمكنه من التفكير العلمي التجريبي، فقد صار بمقدور المراهق أن يفترض فرضية ما، ثم أن يفكر فيما ينتج عنها لو كانت صحيحة، ثم أن يلجأ إلى التجربة للتأكد من تلك النتائج المتوقعة، فإن جاءت نتائج تجاربه مطابقة لما يستنتجه المنطق من الفرضية دل ذلك على أن الفرضية صحيحة أما إن كانت مخالفة له دل ذلك على خطأ الفرضية.

والعلم الحديث قائم على هذا التفكير الفرضي الاستنتاجي، الذي يتقنه الإنسان مع البلوغ.

وفي أحد اختبارات التفكير الصوري المجرد يطلب من المفحوص أن يكتشف مدة نوسان بندول يشبه الساعة، وذلك عندما ينوس جيئة وذهاباً. ويقدم للمفحوص خيط معلق بخطاف، وعدة أوزان، يمكنه أن يربطها بنهاية ذلك الخيط ليصنع من الخيط والوزن المعلق البندول الذي يريد، وهو يستطيع التحكم بطول الخيط المتدلي كما يشاء، ويمكنه أيضاً التحكم بمقدار الارتفاع الذي يشد البندول إليه قبل أن يفلته ليتركه حراً ينوس.

فالمفحوص في هذه التجربة قادر على التحكم بالمتغيرات الثلاث في البندول: طول الخيط، ومقدار الثقل المعلق، وطول المسافة التي سيقطعها البندول عندما يبدأ بالنوسان.

والمعروف علمياً: أن المتغير الذي يؤثر في سرعة النوسان، وبالتالي في مدة كل نوسة، هول طول الخيط، إذ كلما كان الخيط أقصر كان النوسان أسرع،

وكلما كان الخيط أطول كان النوسان أبطأ، واستغرقت النوسة الواحدة زمناً أطول.

لقد أظهرت التجارب: أن الأطفال في سن التمييز (مرحلة العمليات العقلية المجسدة) يجربون، ويغيرون بعض المتحولات، (مثل طول الخيط، أو مقدار الوزن المعلق، أو ارتفاع الثقل قبل إفلاته) ولكنهم لا يفعلون ذلك بطريقة منهجية منظمة، وإنما محاولاتهم عشوائية، ولا تغطي كل الاحتمالات في الأغلب.

أما المراهقون فيضعون سلسلة من الفرضيات، ويقومون باختبارها بشكل منظم، فهم يفكرون على النحو التالي: إن كان متحول معين كوزن الثقل المعلق هو العامل المؤثر، والتحكم في زمن النوسان وبالتالي في سرعة البندول، فإن أثر هذا المتحول سيظهر إذا قمنا بتثبيت المتحولين الأخرى (طول الخيط، والارتفاع الذي نفلت منه البندول) وقمنا بتغيير المتحول الذي نفترض أنه المؤثر.

ثم إن تبين أن تغيير الوزن لا يؤثر على سرعة البندول، قام المراهق باختبار متحول آخر (طول الخيط مثلاً) مثبتاً المتحولين الباقيين وهما الثقل والارتفاع الذي نفلت منه البندول، وهكذا حتى يكشف المتحول الذي تتغير سرعة البندول كلما تغير.

وهذا النوع من التفكير هو برأي العالم (بياجيه) جوهر التفكير بالعمليات العقلية الصورية المجردة، إذ فيه تتجلى القدرة على إدراك الاحتمالات، والممكنات العقلية، حتى لو لم تكن قائمة في الواقع، كما تتجلى القدرة على أخذ عدة متغيرات في الاعتبار في وقت واحد.

ومن المظاهر الهامة للتفكير المجرد التي يكتسبها المراهق: أنه يصبح قادراً على إدراك الزمن التاريخي، والفضاء الكوني، وعلى فهم الفلسفة، وغيرها من الموضوعات المجردة، وكذلك على فهم المقصود من العبارات التي تقال لتعطي

معنى غير المعنى الحرفي لها، كالأمثال الشعبية، والنكات القائمة على اللعب بالألفاظ، ومثلها الاستعارات الأدبية، والتشبيهات البليغة، وأساليب الهجاء، والقصص الرمزية، والمغزى الخلقي من قصة تحكى له، والفكاهة عموماً.

لقد صار المراهق قادراً على إدراك أكثر من معنى لعبارة واحدة، أما قبل ذلك فالأمر صعب جداً عليه، أو حتى مستحيل عندما كان في الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية.

إن إدراكنا لهذه الحقائق هام جداً، كي نعرف الأفكار التي يمكن للطفل المُمَيِّز أن يفهمها، والأفكار التي يجب علينا الانتظار إلى مرحلة المراهقة لتقديمها له، حتى تكون مخاطبتنا له على قدر عقله وفهمه، ولا يخفى على أحد أهمية ذلك لجعل خطابنا لأولادنا ناجحاً مبلغاً لرسائلنا إليهم، ومبيناً لا يجدون فيه أي غموض.

2- النزعة المثالية والانتقادية (Criticalness and Idealism):

تعطي العمليات العقلية الصورية المراهق القدرة على تجاوز الواقع إلى الممكن، وهذا يفتح له عالم المثاليات والكمال. ولأول مرة يستطيع المراهق أن يتصور عالماً من السلام والانسجام يختلف عن الواقع، وتتحقق فيه المثاليات، ويستطيع المراهق أن يتخيل أسرة مثالية كاملة لا عيب فيها، أو غير ذلك من أشياء لا عيب فيها، أو غير ذلك من أشياء من النادر جداً وجودها في الواقع، أو حتى من المستحيل تحققها بالصورة المثالية الكاملة.

ونزعة المراهق إلى انتقاد الوالدين، تلك النزعة التي تظهر في بواكير المراهقة، تنتج جزئياً من قدرة المراهق على تصور الوالدين المثاليين، وعلى مقارنة والديه بهذين الوالدين المثاليين الموجودين في خياله، وبالتالي اكتشاف العيب والنقص في والديه الحقيقيين مقارنة، بالوالدين المثاليين كما يتصورهما.

وقد لوحظ أن بعض المراهقين ينخرطون في حلم يقظة سماه الباحثون: (حلم اللقيط) يتخيل فيه المراهق أنه ولد مُتَبَنّى، وأن والديه الحقيقين هما من

نسب عريق جداً، أو هما ثريان جداً أو مشهوران جداً. وهذا الحلم يعبر عن حساسية المراهق لعيوب والديه التي ظهرت له عندما قارنهما بالوالدين المثاليين، اللذين يسكنان في خياله.

وفي أغلب الأحيان تظهر انتقادية المراهق لوالديه بشكل مفاجئ، ودون سابق إنذار، إذ يتحول طفل العشر سنوات المطيع المتعاون المتقبل لكل ما يأتيه من الكبار على أنه الصواب، يتحول إلى موقف جديد لا تظهر فيه تلك الطاعة العمياء، والاحترام الكامل للوالدين، بل هو الآن ينظر إليهما بعين ناقدة فاحصة، ويشير إلى عيوبهما دون تردد.

وهذا الموقف الجديد للمراهق يشكل تحدياً للوالدين.

والملاحظ أن البنات أسرع نمواً في بداية المراهقة من الصبيان، وبالتالي فإن انتقاديتهن لوالديهن تظهر مبكرة بعض الشيء مقارنة بالصبيان، لكن الصبيان ما يلبثون أن يلحقوا بهن، ويقفوا مواقف النقد من والديهم.

قد تكون انتقادية المراهق لوالده ظاهرة، ومباشرة، وصريحة، وقد تكون خفية وغير مباشرة، ومتضمنة في كلامه أو سلوكه.

فعلى سبيل المثال: قد يتغير سلوك صبي ما كان يغسل يديه، أو يغير قميصه، أو يستعمل الشوكة في طعامه دون معركة مع والديه، يتحول إلى خبير وذواقة في آداب السلوك، واللباس والطعام، وكأنه يقول لوالديه (أنتما لا تعرفان كيف تتحدثان، ولا تعرفان كيف تمشيان، ولا كيف تلبسان، أو تأكلان).

ويتحدث عالم النفس الأمريكي المتخصص في النمو المعرفي عند الطفل والمراهق ديفيد إلكند David Elkind عن مراهقته هو، ليضرب لنا مثلاً على انتقادية المراهق لوالديه، وحساسيته لعيوبهما؛ التي تبدو له عندما تمكّنه قدراته العقلية من تجاوز الواقع إلى الممكن.

يقول إلْكند: (كان والداي مهاجرين روسيين، ولم يكن ذلك يزعجني أبداً حتى صرت مراهقاً، واكتشفت – وكأنني لم أكن قد سمعتهما يتكلمان من قبل-

أنهما ذوا لهجة غير أصلية في لغتهما الإنكليزية، وأن لهجتهما كانت واضحة الاختلاف عن لهجة آباء وأمهات زملائي الأمريكين أصلاً، ولم يكونا يلبسان كما كان يلبس والدو أصدقائي الأمريكيين. كان شعر أمي طويلاً يصل إلى الأرض، وكانت تجعله ضفائر طويلة تلفها مجتمعة لتعمل منها كعكة في مؤخرة رأسها. وإني أتذكر الآن وأنا أحس بالخزي، والندم كم كنت انتقادياً، وعياباً لهما في ذلك الوقت، وكم كنت أحس بالحرج كلما قدمتهما إلى أحد من أصدقائي).

وهنالك عامل نفسي آخر يساهم في ظهور انتقادية المراهق لوالديه، إضافة إلى قدرته على إدراك المثالي، وهذا العامل متعلق بالميول العاطفية، والجنسية الجديدة المنبثقة مع البلوغ الجنسي في المراهقة.

فعندما يفتتن المراهق - ذكراً كان أو أنثى - بمراهق من الجنس الآخر، فإن ذلك قد يسبب صعوبات في علاقته بوالديه.

يعتقد كثير من المراهقين أن الحب لدى الإنسان له مقدار، وكمية ثابتة، وأن حبه لوالديه كان يستهلك كل الحب الذي بحوزته، وبالتالي لا بد أن يكون حبه لشخص من الجنس الآخر على حساب حبه لوالديه.

وهذا يولد في نفس المراهق إحساساً بالذنب تجاه والديه؛ اللذين اعتنيا به في كل سنين حياته، واللذين يستحقان نصيبهما من حبه.

ومن الحيل اللاشعورية التي تلجأ إليها النفس عند المراهق لحل هذا الإشكال والتناقض، بين حبه لفتاة، أو حبها لفتى من عمرها، وبين حبه لوالديه: أن تبحث عن عيوب الوالدين؛ لتبرر ما يقوم به المراهق من تحويل قدر من حبه لهما إلى مراهق من الجنس الآخر، وبمقارنة المراهق والديه مع الوالدين المثاليين يجد أنهما دون مستوى الكمال، ويكون في رأيه من العدل أن يسحب منهما بعض حبه لهما، فهما لا يستحقانه على كل حال.

إن لنمو القدرة على رؤية عيوب الوالدين أهمية بالغة من حيث قدرة الإنسان على حب الآخرين، على الرغم من عيوبهم، وقصورهم عن مستوى المثالي والكامل.

فالمراهق الذي يحب والديه، ورأى عيوبهما، واستمر في حبه لهما، وهذا ما يحدث عادة إن كانت علاقة الوالدين بالمراهق حسنة، فإنه يتعلم: أن يحب الآخرين، وأن يعتبرهم قابلين للحب، وأهلاً له، مع أنهم ذوو عيوب، وهذا يجعل المراهق أقدر على إنشاء علاقات إيجابية ومثيبة عندما يصبح راشداً، وفي هذا قدر كبير من النضج، يقابله عجز بعض الذين لم ينضجوا نفسياً بالقدر الكافي، عن أن يحبوا أحداً إن اكتشفوا فيه عيباً أو نقصاً، فيبقون طيلة حياتهم يبحثون عن المثالي الكامل الجدير بحبهم دون أن يجدوه.

ومع أنه على الوالدين ألا يحملوا انتقادات أولادهم لهم محمل الجد، فإن هذه الانتقادات يجب أن لا تبقى أسئلة بلا أجوبة. وبعض الاستجابات المقترحة لانتقادات المراهقين من قبيل: «أنا راضٍ عما أنا فيه، واعتقد أنه عليك قبول ذلك» أو «حسناً أنا مستعد للاستماع إلى شكاواك حولي إن كنت مستعداً لسماع شكاواي حولك».

والهدف من هذه الإجابات: هو مساعدة المراهق على التمييز بين وجهة نظره ووجهة نظر والديه، وعلى إدراك أننا كلنا دون مستوى الكمال والمثالي، وأننا كلنا بشر لنا عيوب، وفينا الضعف البشري، بما في ذلك المراهق نفسه.

إن تذكر المراهق لحقيقة أنه مثلنا يبدو لغيره دون المثالي، يجعله أكثر تسامحاً مع عيوب الآخرين، وأقل تمحوراً حول ذاته، إذ يدرك أن العالم من حوله يمكن رؤيته من منظورات مختلفة.

3 - حب الجدل والمحاججة:

كلما اكتسب الطفل قدرة جديدة نشأت لديه دافعية ورغبة في استخدامها، وممارستها، فابن الأربع سنوات الذي تعلم العد يعرض نفسه على

الكبار كثيراً، وعند أية علامة لموافقة الكبار ينطلق ليعد حتى يبلغ أكبر رقم تعلمه، وكذلك المراهق الذي اكتسب العمليات المنطقية الصورية، فإنه مدفوع إلى استخدامها وممارستها، لقد أصبحت لديه قدرة جديدة... إنه قادر على تنظيم الحقائق، والأفكار، وعلى أن يصوغ قضية يدافع عنها بالحجج والبراهين، وتجاوز الطفولة عندما كان يرى الأشياء إما بيضاء وإما سوداء، إما جيدة وإما سيئة، إما صحيحة وإما خاطئة، حيث لا حلول وسط، لقد تجاوز هذه الطفولة العقلية، وصار قادراً على رؤية الظلال الرمادية بين الأبيض والأسود، أي: على إدراك تدرجات الجودة أو السوء، وعلى إدراك تدرجات الخطأ والصواب.

وفي هذه المرحلة لا يقنع المراهق بأمر من أمه أو أبيه يقول له: (افعل ذلك لأنني أنا أقول لك أن تفعله)... لقد كان مثل هذا الأمر كافياً له في طفولته، لكنه الآن يريد أن يعرف الأسباب التي بموجبها عليه أن يفعل أو لا يفعل، فإذا قال أحد الوالدين لمراهق أو مراهقة: (لا يمكنك الخروج اليوم إذ عليك واجب مدرسي، وعليك الاستيقاظ باكراً في الصباح لكي تذهب إلى المدرسة) يكون الرد المتوقع من المراهق من قبيل: (لكنني عملت الجزء الأكبر من واجبي اليوم، ويمكنني إتمامه في قاعة الدراسة في المدرسة غداً، ثم إنني لا أقدر أن أنام مبكراً على أية حال).

إن أمثال هذه المجادلات ، على الرغم من أنها مزعجة للوالدين ، يجب أن ينظر إليها في إطار حقيقتها، وهي جهود من المراهقين لاستعمال قدراتهم على الجدل والمحاججة، والتدرب عليها، وإن كان لها دوافع أخرى أيضاً، لكن حب ممارسة القدرات الجديدة تجعل الإنسان يلجأ إليها بكثرة حتى يتقنها جيداً، ويطمئن إلى امتلاكه إياها.

وكثيراً ما يشتكي الآباء والأمهات من جدل أبناءهم وبناتهم في طور المراهقة، ويقولون: (لكنه يجادل من أجل الجدل) وهذا حق، إذ المراهق لا يجادل من أجل الأمر المعين موضوع الجدل فحسب، إنما هو يجادل ليمارس قدرته الجديدة على الجدل، وإذا أدركنا هذه الحقيقة، فإننا نستطيع التعامل مع جدل

المراهقين بطريقة تشجع نموهم البنّاء، ويمكننا مساعدتهم على التمييز بيد الجدل كتمرين في المنطق والجدل كمحاولة إقناع جادة.

ثم إنه يمكننا مجادلة المراهقين في المبادئ، والأسس، وتجنب مجادلتهم في الأمور المشحونة عاطفياً بالنسبة لهم، فالواجب المدرسي يجب أن ينجز لأنه جزء من عملية الذهاب إلى المدرسة، والانتظام فيها، ولأنه من الالتزامات التي يلتزم بها الطالب.. وقد يرغب المراهق في مناقشة هذا المبدأ، أو غيره من المبادئ، والأسس، وذلك أمر لا بأس فيه، إنما على الوالدين أن يتركوا دوافع المراهق وشخصيته خارج النقاش؛ لأنها موضوعات مشحونة عاطفياً بالنسبة له، وبإخراجها من مجال النقاش يمكننا أن نؤمن للمراهق ما يحتاج إليه من ممارسة للجدل وللمحاججة دون أن نزعجه، أو أن يزعجنا، ودن أن يتحول النقاش إلى نقاش في شخص المراهق، وبالتالي إلى دفاع من المراهق يظهر فيه العناد، والمكابرة، لأنه صار يدافع عن نفسه، لا عن فكرة مجردة، وصار يرى في انتقادنا لما يقول إساءة له، وانتقاصاً منه، وهذا عادة يعقد الأمور كثيراً.

4 - الإحساس الزائد بالنفس:

إن حالة الشعور، أو الإحساس بالنفس **Self Consciousness** هي ما يحسه الإنسان إذا خجل وأحس أن عيون الآخرين عليه، حيث يصبح واعياً، وشاعراً بجسمه، وحركاته وكلماته، ويفقد حالة نسيان النفس؛ التي يتمتع بها الإنسان المنطلق، حيث يكون تركيزه على ما هو خارج نفسه، أي على الأشخاص والأشياء من حوله، وليس على نفسه. والتركيز على النفس، والشعور بها ينجر إليه كل إنسان عندما يظن نفسه موضع انتباه الآخرين، ويخشى في الوقت نفسه أن تظهر لهم عيوبه، أما المعجب بنفسه، أو الراضي عنها، فإنهما لا يعانيان في مثل هذه المواقف ما يعانيه الذي ما يزال يخشى أن يكون موضع انتقاد الآخرين.

والإحساس الزائد بالنفس سمة من سمات المراهقين، تنتج عن قدرتهم الجديدة على التفكير بالعمليات الصورية، وعلى التفكير حول التفكير.

فعندما كانوا أطفالاً ما كانوا يفكرون بالآخرين: ما عساهم يقولون في أنفسهم، وما عساه يدور في رؤوسهم... الأطفال لا يمتلكون القدرة الكافية على التفكر، والاهتمام بما يدور في رؤوس الآخرين.

ومن التجارب التي أجراها (ديفيد إلكند) على الأطفال لإظهار عجزهم عن التفكير بأفكار الآخرين: أنه سأل الأطفال عما إذا كان يمكن للقطة أن تكون مسيحية، أو يهودية، أي ذات ديانة خاصة بها، وقد كان الجواب الغالب عند الأطفال - بغض النظر عن ديانتهم الشخصية - أن الحيوان كالقطة أو الكلب لا يمكن أن يكون مسيحياً أو يهودياً، لأن القسيس لن يسمح له أن يدخل الكنيسة، ولأن الراباي لن يسمح له بدخول كنيس اليهود. وقال الأطفال: إن القطة أو الكلب ستثير ضجيجاً، وستركض هنا وهناك إن دخلت الكنيسة أو الكنيس.

أما المراهقون فقد أعطوا جواباً مختلفاً، كان فيه التركيز على الأفكار، والعقائد، حيث تكررت في أجوبتهم الفكرة التالية: (إن القطط والكلاب ليست ذكية كالإنسان، ولن تفهم الدين).

إن مفاهيم مثل (الذكاء) (الفهم) (الاعتقاد) (الإيمان) هي أفكار حول التفكير، ونادراً ما يستعملها الأطفال، أما المراهقون فيزداد استعمالهم لها كلما تقدمت بهم السن، وازدادوا نضجاً عقلياً، حيث يمتلكون القدرة على التفكير حول التفكير، وحول ما يجري في رؤوسهم هم، وما يجري في رؤوس الآخرين.

ولما كان المراهقون، مشغولين بما يجري في أجسادهم، ووجوههم، وعواطفهم، وقواهم العقلية من تغير، وتحول، فإنهم متمحورون حول أنفسهم، ومركزون اهتمامهم عليها، ويفرضون أن الجميع من حولهم مشغول، ومهتم بما هم مشغولون فيه، ومهتمون به، وبالتالي يفترضون أن الجميع مهتم بهم، ومركز انتباهه عليهم. والعالم (ديفيد إلكند) يسمي ذلك (الجمهور المتخيل) حيث يعيش المراهق والمراهقة وكأنه على خشبة مسرح أمام جمهور واع، ومنتبه

ومهتم، بمظهر المراهق، وسلوكه بمقدار اهتمام المراهق نفسه بمظهره وسلوكه.

ويقول (ديفيد إلكند): إننا جميعاً نحتفظ بشي من هذا (الجمهور المتخيل) حتى عندما نصبح كباراً راشدين، ويذكر أنه كان يتناول طعامه ذات مرة في مطعم كبير في مدينة غريبة عنه، وهو يأكل وقعت السكين على الأرض الرخامية، فبدا صوت ارتطامها على الأرض مثل صاعقة، وأحس أن جميع من في المطعم كان ينظر إليه، ويقول في نفسه: (ياله من أخرق!).

وواضح لنا أن مثل هذا الإحساس فيه مبالغة، ومن المستبعد جداً أن يهتم كل من في المطعم بسكين وقعت على الأرض مصادفة.

وبعض الراشدين يعتمد على الجمهور المتخيل كثيراً، حيث يضرب ديفيد إلكند مثالاً على النجمة السينمائية الآخذة في الخبو والذبول من عالم السينما، إذ تكتئب وتحزن، لأنها تتصور أن الجميع يلاحظون كل تجعيدة جديدة في وجهها، وكل شعره بيضاء في رأسها، وكل وريد أزرق في ساعديها أو رقبتها.

كما يذكر مثالاً آخر: أولئك المغرورين بنجاحاتهم، الذين يتصورون أن الجميع يراقبهم في المطعم مثلاً، حيث ينادون رئيس الخدم بصوت عال، وباسمه الأول، ويعملون من جلوسهم على أفضل طاولة مشهداً للجميع.

وفي الحقيقة أننا إذا نظرنا إلى أنفسنا كممثلين على مسرح الحياة، فإننا لا نحتل وعي جمهورنا أكثر من لحظة قصيرة، وربما لا يهتم بنا أحد حتى لحظة قصيرة، فأكثر الناس ينفق معظم حياته في التفكير بمشكلاته الخاصة، وفي آماله، وإحباطاته، لأن الأنانية فطرة لدى الجميع، ولولاها لما حرص أحد على مصلحته الدنيوية أو الأخروية.

وطبيعي أن يعجب الناس بأداء بارع، أو بشخص ناجح في مجاله، لكن ذلك لا يحتل إلا جزءاً ضئيلاً من أفكارهم.

وإدراك هذه الحقيقة يأتي متأخراً في حياة الإنسان، هذا إن هو أتى، إذ يبقى البعض غافلاً عن هذا الإدراك.

والمراهقون الصغار يؤمنون بشدة أنهم في بؤرة اهتمام الناس وتركيزهم ومن ثم يراقبون أنفسهم، ويحسون بها بشدة، وقد يتكلفون الكثير من الجهد والمشقة، ليتجنبوا ما يعتقدون أنه سيكون خبرة مخزية.

والجمهور المتخيل يساعدنا على فهم بعض التبدلات في سلوك المراهقين، حيث من دون أخذه في الاعتبار سيصعب علينا كثيراً تفسير التغير، الذي يطرأ على فتى كانت أمه تدخل في معركة معه لتجعله يغتسل، فإذا به بين ليلة وضحاها ينفق أوقاتاً طويلة في الحمام يغتسل، ويقف أمام المرآة يمشط شعره، ويحسن هندامه، ومظهره.

وعندما يقف المراهق أمام المرآة، فإنه يتخيل رد فعل الجمهور لمظهره، فهو في هذا العمر شديد الاهتمام لما تكون عليه صورته في عيون الآخرين، وهذا يرينا أهمية تجنب الكبار، الذين يشرفون على المراهق لأية سخرية منه، أو انتقاد علني له، فإذا ما كان علينا توجيه المراهق أو المراهقة حول شيء من سلوكهما، فلا بد أن يكون ذلك في السر وبعيداً عن أعين الناس.

وكلما كبر المراهق قل اهتمامه بالجمهور المتخيل، إذ يقل تركيزه على نفسه نتيجة خبراته الأوسع، وعلاقاته الاجتماعية المتنامية. وقد أجريت دراسات كثيرة على المراهقين لقياس هذا التغير في مقدار مراقبة المراهقين لأنفسهم، وتركيزهم عليها، ومن هذه الدراسات ما يستخدم مقياساً للجمهور المتخيل يحتوي على أسئلة مثل: (بقيت شهراً وأنت متشوق للذهاب إلى الحفلة، وعندما وصلت إليها بعد مشوار طوله ساعة بالسيارة اكتشفت بقعة زيت على قميصك أو بنطالك، ماذا تفعل هل تبقى في الحفلة أم تعود إلى البيت؟).

الغالبية من الأطفال المُمَيِّزين الذين اقتربوا من المراهقة أجابوا أنهم سيذهبون إلى الحفلة على أية حال، وكذلك المراهقون الكبار بين (16-17) سنة أجابوا الشيء نفسه وقالوا: (إنهم أصدقائي، ولا أحد سيهتم) أي إنهم سيحضرون الحفلة على الرغم من بقعة الزيت، لكن الأمر مختلف عند المراهقين والمراهقات الصغار من عمر (13-14) سنة حيث قالوا: إنهم سيبقون في الحفلة، لكنهم سيقفون في زاوية مظلمة بحيث لا يرى أحد بقعة الزيت على ملابسهم، وأنهم سيسكبون شيئاً على أنفسهم متظاهرين بأن ذلك حدث رغماً عنهم، كي يظن الحضور أن البقعة ناتجة عما انسكب عليهم من شراب، وليست بقعة أتوا بها على ملابسهم من البيت.

وواضح أن الجمهور المتخيل يعكس عدم قدرة المراهق الصغير على التمييز بين انشغالاته وهمومه هو وانشغالات وهموم الآخرين.

ويمكننا مساعدة المراهق الصغير على اكتساب القدرة على هذا التمييز إذا أخذنا موقفاً وسطاً بين قبول نظرة المراهق إلى العالم وبين رفضها بالكامل؛ فعلى سبيل المثال إن قالت مراهقة صغيرة: إن لديها نمشة على خدها، وإنها قبيحة بسبب هذه النمشة الصغيرة، وإن الناس كلهم يرونها قبيحة، فإننا لن نحقق الكثير إذ ما طمأناها، وقلنا لها: إنها جميلة على الرغم من النمشة التي على خدها، وهي لن تكون شاكرة لنا إذا ما وافقناها فيما تعتقده من أنها قبيحة، أما الرد الأفضل المنطلق من موقف متوسط فإنه من قبيل أن نقول لها: (حسناً، إنك بالتأكيد لا تبدين لي قبيحة، لكن هذا هو رأيي. ماذا يقول الآخرون؟ هل يقولون شيئاً عن ذلك، أم هل يلمزون ويغمزون؟).

إننا بمثل هذا الرد نساعد هذه المراهقة على وضع خيالها على محك الواقع، وعلى اختبار حقيقة جمهورها المتخيل بمقابل الواقع، وبذلك على التمييز بين الحال التي يكون عليها العالم من حولها، والحال التي تشتهي هي أن يكون عليها هذا العالم، وبالتدريج يتعلم المراهق الموضوعية بينما هو يتحرر من سطوة الجمهور المتخيل واستبداده.

5- التمحور حول الذات:

المقصود بالتمحور حول الذات Self-Centeredness أن المراهق يرى نفسه خاصاً ومتفرداً، ويدور اهتمامه حول ذاته إلى حد كبير، أي تصبح ذاته هي المحور، والمركز الذي يدور حوله، وينتج عن هذا التمحور حول الذات الظن أنه موضع اهتمام خاص من الآخرين حوله، وأنه مختلف عن الآخرين في كثير من الأمور الهامة، كأن يشعر مثلاً وكأن الجميع سيشيخ ويموت إلا هو، فإنه يتناسى ذلك، ويغفله، ويعيش وكأنه ذو وضع خاص ومختلف، وكأن يشعر أن الآخرين لن يحققوا ما يطمحون إليه في حياتهم، لكنه هو سيحقق طموحات حياته.

إنه نوع من الاعتقاد بخصوصية للنفس، واختلاف يميزها عن الآخرين، وديفيد إلكند يدعو ذلك "الخرافة الشخصية"، ذلك أنها اعتقاد غير واقعي، ويرى أن الخرافة الشخصية مثلها مثل الجمهور المتخيل تبقى قائمة في النفوس ولو بشكل مبسط طيلة حياة الإنسان ويقول لو أخذنا في عين الاعتبار جميع المخاطر المحيطة بنا في حياتنا المعاصرة، لما كدنا نخاطر في الخروج من بيوتنا، لكننا نرتدي من الخرافة الشخصية درعاً من العصمة. ويقول إن الخرافة الشخصية هي التي تقنع الجندي الذاهب إلى المعركة أن الجنود الآخرين قد يقتلون، أو يصابون، لكنه هو سينجو، ويعود إلى بيته، وبذلك تساهم الخرافة الشخصية في إعطاء الأمل للإنسان.

والخرافة الشخصية تكون أكثر بروزاً في حياة الإنسان خلال المراهقة، وكم من مراهق أو مراهقة يكتبان يومياتهما، وهما يتوقعان أنها ستنتشر يوماً ما كرواية عظيمة ينتظرها الجميع!

وقد تقول فتاة لأمها: (أمي! إنك لا تدرين كيف يكون الإحساس عندما يحب الإنسان إنساناً آخر).

والمراهق في كلا المثالين السابقين يعطي الانطباع أن خبراته وتجاربه في الحياة متفردة، ومتميزة وخاصة.

إن إعادة النظر في الخرافة الشخصية بشكل واقعي، جزء هام من النضج النفسي، ومن تكوين إحساس واضح بالنفس لدى الإنسان. وإعادة النظر هذا أمر يحدث طيلة حياة الإنسان، كلما تعرض إلى خبرات في حياته، تدفعه إلى أن يصحو من غفلته هذه، ويتحرر شيئاً ما من خرافته الشخصية.

ويضرب (ديفيد إلكند) من نفسه مثلاً فيقول: (عندما كنت شاباً أصيبت أمي بنوبة قلبية، وكان على أن أصحو من خرافتي الخاصة، إذ كنت أحس أن الأمراض الخطيرة التي أصابت والدي، الكثيرين من معارفي، كأنها لن تصيب أحداً من عائلتي أنا، أي أفترض أنني محمي، ولم أستطيع مواجهة قلقي، والسيطرة عليه، ومساعدة أمي بشكل فعال إلا عندما أعدت النظر في افتراضي لعصمتي، واختلافي عن الناس).

والخرافة الشخصية لا تقتصر على الأوهام المتفائلة، والإيجابية، بل هي موجودة في الأمور السلبية في حياة المراهق؛ الذي يفترض أن مشكلاته خاصة، ومختلفة، ولا أحد غيره لديه مشكلات بمثل سوئها، تماماً مثلما يظن المراهق أن أفراحه خاصة، ولا أحد لديه مسرات بمثل جودتها.

والمراهق يعتبر الخرافة الشخصية حقيقة ثابتة؛ لذا علينا ألا نتحدى خرافته الشخصية تحدياً مباشراً، إذ إن ذلك سيجعله أكثر تمسكاً بها ودفاعاً عنها.

وعوضاً عن مجادلة المراهقين حول كم هم مماثلون للآخرين، علينا أن نلفت نظر المراهقين إلى أن الآخرين هم أيضاً خاصون، ومتفردون، فالأم مثلاً تستطيع أن تقول لابنها المراهق: (إن أباك شخص متميز جداً إنه يعمل بدأب ليؤمِّنَ معيشتنا، ومع ذلك لديه وقت للأصدقاء، والترويح عن نفسه).

أي أننا لسنا في حاجة لأن نرفض الإقرار للمراهق بتفرده كي نؤكد تفردنا نحن، إننا من خلال تأكيدنا لخصوصية الآخرين، وتفردهم نستطيع مساعدة المراهق على التمييز بين النواحي التي هو فيها كالجميع، وبين النواحي التي هو فيها مختلف عن الآخرين.

6- صعوبة اتخاذ القرارات:

يعاني المراهق الصغير من صعوبة اتخاذ القرارات حتى في الأمور اليومية البسيطة من مثل ما يأكل، وما يلبس، وهذا التردد أمام القرارات ناتج عن القدرة المكتسبة حديثاً لدى هذا المراهق على التفكير الافتراضي، حيث أصبح لديه قدرة على أن يُبقي في ذهنه أفكاراً كثيرة في الوقت نفسه، وبالتالي يكون أمامه احتمالات كثيرة يختار منها، ويشبه (ديفيد إلكند) ذلك بحيرة الطفل عندما يطلب منه أبوه أن يختار نوعاً من الحلوى، أو الشوكولا في دكان الحلوى، ويقول: إن المراهق دكان الحلوى في رأسه، ويحتار أيها يختار.

وعندما يضطر المراهق إلى اتخاذ قرار، فإنه كثيراً ما يأتي باختيارات قد تبدو غريبة للكبار. فالفتاة التي تحتار فيما تلبس للمدرسة، تسأل النصيحة ثم تختار عكس ما اقترحته أمها، والفتى الذي يصر على ارتداء معطف شتوي في جو حار، وعلى خلعه في جو بارد. ويذكر ديفيد إلكند مثالاً آخر من واقع المجتمع الأمريكي، وهو إدمان المراهقين والمراهقات الوجبات السريعة، ويعلل ذلك أن الوجبات السريعة تتطلب قرارت قليلة، وبأنه ما إن يقرر المراهق وجبة مفضلة، حتى يشعر أن المشكلة انحلت وللأبد، بينما تقدم قائمة الطعام في المطعم خيارات عديدة، وكثيراً ما يحل المراهق المشكلة بأن يختار في المطعم وجبة هي الأقرب إلى وجبته السريعة التي اعتاد عليها.

والفرق بين المراهق والراشد في هذا المجال هو مقدار الخبرة في صنع القرارات، إذ نتيجة هذه الخبرة فإن الراشد يكتسب قواعد، واستراتيجيات لصنع القرار؛ فعلى سبيل المثال، يقرر البعض ما يلبس حسب مزاجه ذلك اليوم،

والبعض الآخر يستخدم طريقة التناوب الدوري، كأن يلبس مشاركة لونية مختلفة كل يوم، والبعض قد يلبس حسب التقويم، كأن يلبس البني يوم السبت، والأزرق يوم الأحد.

أما المراهق الذي لم يضع لنفسه قاعدة، ولم يكتسب استراتيجية تعينه على اتخاذ القرار، فسيجد صعوبة في تقريره ما يلبس ذلك اليوم.

ومن جهة أخرى فإن الكبار يستفيدون من حالاتهم المزاجية لتحديد القرار الذي يتخذونه، فلو أخذنا مثال اللباس، فإن الذي يحس بالكآبة قد يرغب في ارتداء ثياب زاهية لتوازن مزاجه، وتحسن منه، أما الذي يحس بالرضا والسرور لشيء فعله، أو حصل له، فقد يرغب في تناول وجبة في مطعم ذي إطلالة جميلة، وقد يرغب من يحس بالوحدة في مشاهدة ملهاة رومانسية تنعش معنوياته.

وهكذا فإننا نرى الإنسان في هذه الأمثلة المسوقة من واقع المجتمع الأمريكي يصغي إلى حالاته الوجدانية، ويقرر بناء عليها، أما المراهق فغير قادر على ذلك لسببين:

الأول: أنه يعيش الوجدانات، والعواطف المختلفة، لكنه غير قادر على تحديد ما هي بالدقة التي يحددها الكبار؛ لذا يمكن أن تكون اختياراته محيرة للكبار، كأن يختار مشاهدة فيلم حزين عندما يحس بالكآبة.

والسبب الثاني: أن مشاعره تتبدل بسرعة إلى حد أن اختياراته المستندة إلى مشاعره في لحظة ما، قد لا تتناسب مع مشاعره في اللحظة التالية.

لكن بازدياد الخبرة لدى المراهق فإنه يكتسب المزيد من القدرة على تمييز مشاعره، أو أمزجته أو تحديدها، ووصفها وتسميتها بأسمائها، كما أنه بمرور الوقت، وبالنضج المتزايد تختفي منه التأرجحات العاطفية السريعة، وتغدو حالاته الوجدانية أكثر استقراراً.

ومن المفيد للمراهق أن نساعده على تمييز مشاعره، وتحديدها، ووصفها، بأن نقترح عليه ما نعتقد أنه يحس به، كأن يقول الأب لابنه الذي بدا

له كئيباً: (إنك تبدو مكتئباً بعض الشيء، هل تحب الذهاب للتسوق معي، أو أن تذهب لنتمشى في المنتزه؟).

إن مثل هذه العبارة تعلم المراهق كيف يصف، ويسمي حالة وجدانية يحس بها وقد لا يدري ما هي، وماذا تدعى.

وإن مساعدة المراهقين في تمييز مشاعرهم، وتحديدها من الأهمية بمكان، بحيث لا يقل أهمية عن مساعدتهم على تحديد أفكارهم، وفهمها.

7- المراهق والنفاق الظاهري:

عندما يدخل الإنسان طور المراهقة، ويكتسب القدرة على التفكير المنطقي الصوري المجرد، يصبح إنساناً مثالياً جداً، ومع أن المراهقين الصغار بليغون جداً في التعبير عن المثل التي يعشقونها، فإنهم على الأغلب، لا يفعلون شيئاً مما يبدو لنا بالمنطق أفعالاً يجب أن تترتب على إيمانهم بالمثل التي يعلونها، وهذا يجعلهم يظهرون بمظهر المنافقين؛ الذين يدّعون الإيمان بشيء لا يؤمنون في الحقيقة، وبالتالي لا يكاد يرى لإيمانهم أثر في أفعالهم .

المراهقون ليسوا منافقين، بل هم مايزالون في مرحلة لا يدركون فيها الفرق بين تعبير الإنسان عن مثله وبين سعيه وعمله إلى تحقيقها.

إنهم يعتقدون أنهم بالتعبير عن قيمة ما قد قاموا بما يجب لتحقيقها، حيث بالنسبة لهم التعبير يكفي، وإن لم تتحقق المثل على الرغم من أنهم عبروا عنها بوسائلهم، كالكلام والمسيرات، والشعارات، فلا بد أن عدم تحققها ناتج عن تقصير الكبار.

ويضرب العالم (ديفيد إلكند) مثالاً من الحياة الإمريكية على هذا النفاق الظاهري، ذلك إنه في إحدى المدن الصغيرة قام المراهقون بحملة لجمع الأموال لصالح مشاريع تخدم البيئة في مدينتهم، وكانت وسيلتهم إلى ذلك أن يسيروا مسافات طويلة، ومقابل كل مسافة يقطعها الفتيان والفتيات يراهن الكبار بدفع

مبلغ من المال يستحقه المراهقون إن قطعوا المسافة التي أعلنوا عنها، والمال المجتمع يذهب إلى المشاريع المطلوبة.

وقد أعجب (ديفيد إلكند) وهو يرى همة هؤلاء المراهقين والمراهقات، وإيمانهم بقيمة الحفاظ على البيئة، وحمايتها من الفساد، لكنه قُدّر له أن يمر في اليوم التالي لمسيرة المراهقين والمراهقات في الطريق نفسه الذي ساروا عليه، فذهل لما رآه من المهملات المرمية في الطريق، مثل: علب المرطبات، وأوراق السندويش، وغير ذلك، وقال في نفسه: إن ما صرفته البلدية على تنظيف الطريق بعد مسيرة هؤلاء اليافعين ربما زاد على ما جمعوه من أجل البيئة، والراشد الذي لا ينتبه إلى أن سلوك هؤلاء اليافعين ناتج عن قلة نضج، لا بد للمراهقين من أن يمروا به في بداية مراهقتهم، سيتهمهم بالنفاق إذ يدعون إلى بيئة نظيفة، ويوسخونها بأيديهم.

لكن المراهق ينضج مع الأيام، وأفضل ما يساعده على التمييز بين المُثل وبين الجهد الشاق اللازم لتحقيقها في الواقع، هو أن ينخرط المراهقون في أعمال هادفة كالعمل في عطلتهم الصيفية، وخاصة إن كان عملهم بأجر مادي.

8- المراهق والدين:

مع دخول الإنسان طور المراهقة، واكتسابه القدرة على التفكير المجرد، والمنطق الصوري تتعمق نظرته إلى الدين، ويدرك أن الدين لا بد له من إيمان واعتقاد، وأن الشعائر والطقوس ليست كل شيء، كما يتعمق فهمه للألوهية حيث يدرك بعد أن اتسع أفقه: أن الأديان تتحدث عن إله واحد هو الخالق العظيم، وأن الإله ليس إلهاً خاصاً بملة، أو طائفة، بل هو رب العالمين، وتصبح علاقة المراهق بخالقه ذات طابع شخصي، إذ يحس المراهق أن الله معه حيث كان، يلجأ إليه في الأزمات، ويبثه همومه، ويأتمنه على أسراره.

والمراهقة هي المرحلة التي يبدأ فيها الإنسان بالتفكير المستقل حول الدين الذي يتخذه، ويؤمن به؛ لذا كان المراهقون أسرع من ينضم إلى الدعوات

الجديدة، وإن كان أغلب المراهقين في الأحوال العادية يتبنون دين آبائهم عندما يتجاوزون طور المراهقة، ويصبحون هم نفسهم آباء، ذلك أن العنصر الديني في هوية الإنسان عنصر هام جداً، ولا بد منه لبناء شخصية متوازنة نفسياً.

ويقول ديفيد إلكند: (إن اليافعين في حاجة شديدة إلى العنصر الديني في هويتهم، إذ أن وجود إيمان ديني لديهم، بغض النظر عن الملة التي ينتمون إليها، وحتى لو لم يمارسوا شعائر هذا الدين، يعطيهم مقدراً محدداً، ومكوناً ثابتاً يندمج في تعريفهم المتطور لأنفسهم، أي: في هوياتهم الآخذة بالتشكل).

لكن المراهق يميل إلى الاستقلالية، ويلزمه أن يشعر أنه مقبل على الدين من تلقاء نفسه، ومن المفيد جداً تخفيف أي ضغط من الكبار عليه، دون الخوف من أن هذه الحرية التي تترك له ستؤدي إلى انحرافه، طالما أنه تلقى جرعة جيدة من التربية الدينية في طفولته قبل المراهقة.

❖ إرشادات لمن يخاطب الأطفال:

يجب أن نذكر أن كل طفل يمر بمراحل النمو المعرفي التي ذكرت في هذا الفصل بالتسلسل نفسه، لكن هناك بعض الاختلاف من حيث العمر الذي يبلغ فيه طفل معين طوراً معيناً، فالأعمار المذكورة هنا هي الأعمار التي يبلغ فيها معظم الأطفال الطور المذكور، لكن يبقى هناك أطفال يتأخرون، وأطفال يتقدمون، ويصلون إلى طور عقلي معين قبل غيرهم من الأطفال بقليل.

وثمرة معرفتنا لأطوار النمو المعرفي عند أطفالنا يجب أن تتجلى في خطابنا لهم سواء في حديثنا معهم، أو في كتاباتنا لهم، أو الأفلام المصنوعة من أجلهم. ولعله من المفيد أن أذكر بعض النقاط الهامة لمن يريد أن يكتب قصة أو نصاً للأطفال:

1) **يجب أن يحدد الكاتب العمر الذي يخاطبه، وأن يعرض المفاهيم التي يقدر على فهمها أبناء ذلك العمر، وأن يحذر من طرح مفاهيم تحتاج إلى عمر أكبر.**

2) كلما صغر الطفل الذي تخاطبه وجب تبسيط الجملة المستخدمة، وتجنب الجمل المركبة الطويلة التي تحتاج إلى تركيز، ونضج عقلي لفهمها.
3) تجنب الحديث عن الزمن إلا للطفل الذي يدركه وبخاصة الزمن التاريخي البعيد أو المستقبلي.
4) تجنب المفاهيم المجردة إلا إن كان الخطاب موجهاً للمراهقين فوق الثانية عشرة من العمر، وهذه غلطة خطيرة وقعت فيها الكثير من الكتابات الموجهة للأطفال.
5) الأطفال يعجبون بأبطال القصص الذين يكبرونهم بسنة أو بسنتين، ويأنفون من الأبطال الذين هم أصغر منهم بوضوح، كما لا يهتمون كثيراً بالأطفال الذين هم أكبر منهم بكثير.
6) يجب تجنب التشبيهات البلاغية، والقصص الرمزية، إلا إن كانت للمراهقين القادرين على إدراك تلك التشبيهات، أو المغزى من القصص الرمزية.
7) يجب أن تطابق الرسوم محتوى النص، بحيث لا يظهر في الرسم شيء لم يذكر في النص، ولا يغيب في الرسم أي شيء كان يجب أن يظهر؛ لأن الطفل دقيق الملاحظة لذلك، وينزعج من الزيادة أو النقص، كما يجب الحرص على أن يكون الرسم ملوناً بألوان جميلة زاهية؛ لما للرسم من قدرة على جذب الطفل إلى الكتاب.
8) يجب طباعة القصة بخط النسخ الكبير ليسهل على الطفل قراءتها، ويجب تجنب كتابتها بالخط اليدوي الذي يتغير فيه شكل الحرف من كلمة إلى أخرى، لأن ذلك يربك الطفل؛ الذي يريد أن يرى لكل حرف شكلاً واحداً ثابتاً.
9) يجب ضبط النص بالشكل، بحيث يتمكن الطفل من أن يتهجى النص، ومن أن يقرأه بشكل صحيح؛ ليكون النص بمثابة درس في اللغة يُكسبه سليقة سليمة، ويقوم لسانه، وهذا ينطبق حتى على ما يكتب للمراهقين.

10) يحب طباعة القصة على ورق قوي، يخاط خياطة قوية، بحيث يتحمل الكتاب تناول الأطفال له، وبحيث يمكن لأجيال متعاقبة أو لأعداد كبيرة من الأطفال الاستفادة من النسخة نفسها، وهذا أمر متبع في أكثر ما ينشر للأطفال في أوروبا وأمريكا.

والخلاصة إن الكتابة للأطفال غير الكتابة للكبار، وليست مجرد اختصار للقصة، وتبسيط للعبارة، بل لابد لكل من يريد الكتابة للأطفال شعراً أو نثراً من أن يفهم جيداً قدرات الطفل على فهم ما يخاطب به بحسب المرحلة العمرية التي هو فيها، وبذلك يكون المربي قادراً على مخاطبة الأطفال على قدر عقولهم.

******



أهم مراجع الفصل

1- كتاب:

((Introduction to Psychology)) By: Atkinson, Athkinson, Smith, bem and Hilgard. Harcourt Brace Jovanovich Publishers, New York.

وقد استفدت منه كثيراً عند كتابتي عن المفاهيم ، وخصائصها.

2- كتاب:

Developmental Psychology: By: Liebert Wicks –Nelson and kail Prentice –Hall, New Jersey.

3- كتاب:

Child Development and Education, A Piagetian Perspective By: David Elkind; Oxford University Press, New York.

وهذا مرجع أساس للفقرات الأولى من هذا الفصل.

4- كتاب:

Children and adolescents interpretive essays on jean Piaget by David Elkind; Oxford University New York.

5- كتاب:

The child and Society; By David Elkind; Oxford University Press, New York.

6 - كتاب:

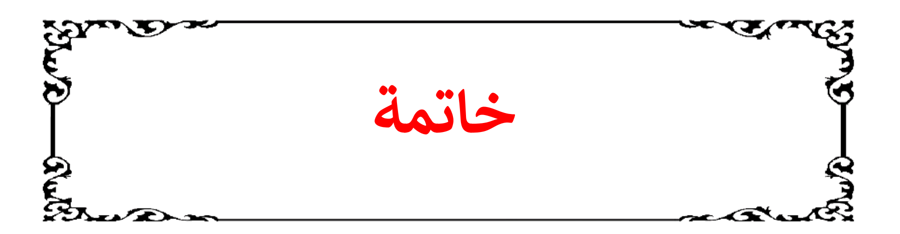
All grown up and no place to go; By: David Elkin; Addison –Wesley Puplishing Company, New York.

وهذا كتاب مفصل عن طور المراهقة والتفكير والمشكلات التي تواجهه في المجتمع الأمريكي وجزء كبير من مادة هذا الفصل مأخوذ من هذا الكتاب القيم.

7- كتاب: (النمو في مرحلة المراهقة) تأليف الدكتور محمد عماد الدين إسماعيل، ونشر دار القلم بالكويت، وهو من أفضل ما قرأت من الكتب العربية المتخصصة التي تتحدث عن المراهقة.

8- كتاب: (رحلة عبر المراهقة) تأليف دوريس أودلم، وترجمة الدكتور فاخر عقل، ونشر دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر بدمشق، وهو من أفضل ما ترجم للعربية عن المراهقة، وموجه للقارىء المثقف غير المتخصص ومفيد للآباء، والأمهات، والمدرسين، والمدرسات، وكل من له تعامل مع المراهقين، والمراهقات.

******



خاتمة

لقد حاولت في الفصول السابقة أن أستفيد من مكتشفات علم النفس الحديث في الوصول إلى بصائر نفسية تربوية تعيننا جميعاً في تربية أولادنا على الإسلام لكنني أعتبر الفصل الثاني من هذا الكتاب الذي يدعو إلى التمييز بين التربية على الدين والتربية على التقاليد، أعتبر هذا الفصل أهم ما قلته في هذا الكتاب لما للتمييز بين الدين والتقاليد من أهمية في تربية أولادنا على التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شائبة من الخضوع لغير الله أو من استمداد القيم من غير العليم الخبير .

وهذا الفصل مفيد للمربي المسلم؛ الذي يريد أن يحدد الأهداف التربوية التي يسعى إلى تحقيقها ويمكن أن يكون له تطبيقات في العملية التربوية اليومية التي يقوم بها الوالدان وكذلك في المناهج التربوية المدرسية وفي قصص الأطفال وأشعارهم وأفلامهم حيث يتم التركيز على الحرية الاجتماعية للمسلم أي: حريته أن يعيش ويتصرف كما يؤمن لا كما يريد العرف، وتريد التقاليد.

كما أعددت فصولاً من علم نفس النمو، أعرّف من خلالها المربين وكتاب الأطفال وواضعي المناهج المدرسية على تطور عقل الإنسان منذ ولادته حتى بلوغه ورشده، وذلك كي يتمكنوا من مخاطبة كل مرحلة عمرية بالمفاهيم التي تستطيع إدراكها، فيصل خطابنا إلى الطفل المقصود به ويحقق الأهداف التي نسعى إليها من خلاله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.


المحتويات

******